کِردان مکسور

✉	info@elrasmbelkalemat.com
WhatsApp	01061419555
Instagram	Instagram.com/elrsmbkalemat
Facebook	FB.com/elrasm.blklemaat

عنوان الكتاب:	كردان مكسور.
المؤلف:	سلوان البري.
الطبعة الأولى:	٢٠٢٣.
المراجعة اللغوية:	م. ندى البري.
الإخراج الداخلي:	د. نورهان سعيد.
تصميم الغلاف:	حسن العربي.
رقم الإيداع:	2022/ 28301
الترقيم الدولي:	978-977-6740-63-1

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يُعرِّض صاحبه للمُساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

كِردان مكسور

رواية

سلُوان البري

الإهداء

إلى أصدقائي الأوفياء..

أبطال كتب الحواديت،

هؤلاء الذين لم يخذلوني يوما!

شكر خاص...

للغالية أ/نُهى داوُد، الصديقة الصدوقة والناصحة الأمينة، مَن أشارت عليَّ بإضافة شجرة عائلة (آل الذهبي) لروايتي الجديدة... إليكِ -سيدتي- أهدي هذا العمل.

ملحوظة هامة

الأشعار الوارد ذكرها بالرواية مقتبسة من ديوان شعري -قيد النشر- بعنوان (مَن مِنَّا امرأةٌ حرَّة؟!) لمؤلفة العمل الكاتبة/ سُلوان البري. الديوان الذي يحوي قصيدة بذات الاسم، نالت عنها المؤلفة جائزة المجلس القومي للمرأة/ فئة شعر الفصحى في ديسمبر عام٢٠٢١.

شجرة عائلة آل الذهبي

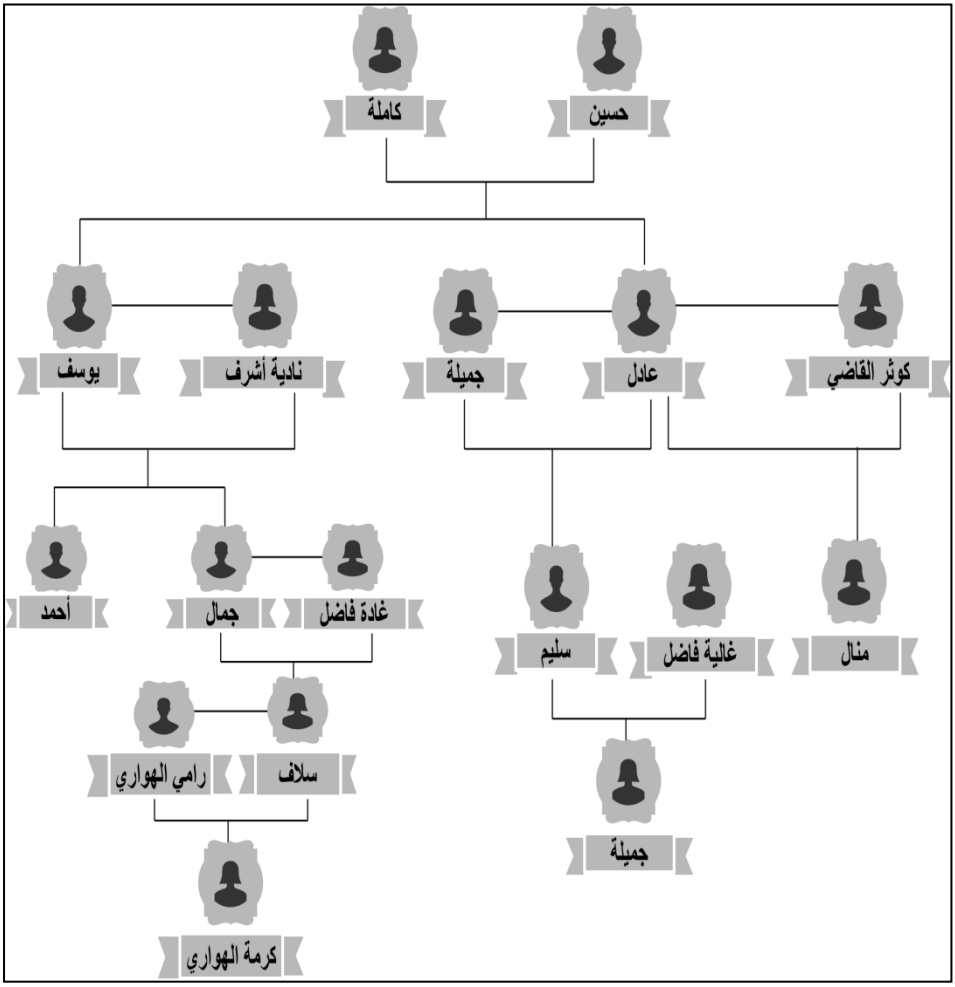

الزمان: إحدى نهارات مايو ٢٠٢٣.

المكان: منزل عائلة الذهبي.. مدينة القاهرة.

عادة ما تنذرنا الأحلام بما هو قادم، لكنَّا نختار -وبمحض إرادتنا- أن نتجاهل الأمر في كل مرة. هكذا كنت رجلًا أحمق تأتيه الرؤى محذرة إياه من مصير مظلم، فما كان مني سوى إزاحة عيوني بعيدا عنها. ولكن بما أن الكارثة قد وقعت فعليا؛ وخسرت معها كل شيء، لماذا -إذن- تأتيني الأشباح في نهاية كل نهار؟!

حسنا، لا إجابة لدي في الوقت الحالي، غير أن الاستسلام رفاهية لا يملكها أمثالي! عقلي مشتت وجفوني تُغلق لا إراديا مستسلمة لحالة من الإغماء المفاجيء، بعد أكثر من ثلاثة أيام أمضيتها قيد يقظة إجبارية. وها أنا ذا في أحلامي أراه... (جمال).. أخي الوحيد وأبي الثاني يقف مبتسما أمامي، وأنا -ذاهلًا- غير مصدقٍ رؤياي!

أرتمي بين أحضانه مخبرا إياه كم صرتُ وحيدا يتيما من دونه، أمعن النظر في قسمات وجهه التي لطالما رأيتها الوجه الحقيقي للفتوة والجرأة..

ومقلتاي المتحجرتان تسألانه الصفح والغفران والعودة لعالمي مرة أخرى. أُبدي ندمي ، ألمي، وأسفي علَّه يرأف بحالي فيعود. أخبره عن حال أبينا الذي أكل الحزن قلبه، وأمُّنا التي أوشكت عيناها أن تبيضّا حزنا لفقده، وزوجته التي صارت كالمجاذيب، لا تغادر المشافى لأنها تقضي ليلها ونهارها تحادثه! كما لو أنه مازال حيا!

أخبره عن كل هؤلاء، ثم تنهمر دموعي -في الحلم- كما الشلال.. إلى أن يسحبني من عالم (جمال الذهبي) صوت أمي فيعيدني إلى عالمنا البائس...

- أحمد.. استيقظ يا ولدي، أتبكي في نومك أنت أيضا؟!

أعود تدريجيا إلى وعيي، لأبصر أمي بجانبي تكفكفُ دمعي -الذي ظننته حلما- بيديها الحانيتين...بينما تبكي هي الأخرى في صمت وأسى.

- هل أبكي حقا، لم يكن الأمر إذن محض حلم؟!

أتساءل بصوت عالٍ، فيأتيني رد أمي على هيئة سؤال آخر.

- هل رأيتَه يا حبيبي؟ إنه يأتي لأبيك أيضا.. أسمعه يحادثه طيلة الليل معتذرا منه ودموعه تغالبه.. كلكم ترونه إلا أنا!

لماذا يا (جمال)..لماذا ترفض الرأفة بحال أمك يا ولدي.. لم تمتنع عن رؤياي ؟

أحاول أن أهديء من روعها، بينما مازلت مشتت الذهن.

- توقفي يا أمي أرجوكِ.. لا أتحمل رؤيتك هكذا.
- حاضر يا حبيبي.. أعتذر عن إيقاظك وأنت لم تنم سوى سويعات قليلة ، لكن السيد (ياسين الهواري) ينتظرك بالأسفل طالبا رؤيتك، وأخبرني أن الأمر هام ويخص (كرمة).. هيا استعد وعيك ريثما يتناول هو قهوته.

تنتهي أمي من كلماتها ثم أقبل يديها، ويبتسم كل منا للآخر ابتسامة المحزون! أنهض من سريري فور رحيلها.. اتجه نحو الحمام حيث الماء الساخن، الحل السحري الذي علمنيه (جمال) منذ نعومة أظافري إذا ما واجهت أمرا عسيرا لا قدرة لي به! كان أخي يرى للماء الساخن قدرة كبيرة في إعادة التائهين لرشدهم، حسنا يا أخي ها أنا أتبع نصائحك، فلم أرانى لا أعود من تيهي وشتاتي؟!

أنتهي سريعا وأذهب لارتداء ملابسي بينما أدعو الله في جنبات عقلي ألا يكون توقعي بشأن زيارة عم صديقي (رامي) – رحمه الله– صحيحا.. لكن للأسف صدق حدسي!

كانت مقابلة صغيرة لكنها أظهرت الكثير.. وأهم ما أظهرته كان الوجه الحقيقي الذي أخفاه طويلا السيد (ياسين الهواري) صائغ الذهب الذي تفاخر أمامي أنه استطاع وهو الأمي الجاهل –على حد تعبيره–

حماية ابن أخيه، إلى أن ساقه قدره الأسود إلى رفقتي وزيجة الخراب من ابنة أخي!! بينما سلّمَنا أخي المتعلم المحقق، الذكي، ذائع الصيت بكلتا يديه إلى مصيرنا المظلم.. المصير الذي ابتلع معه وحيدهُ ابن أخيه الغالي، وربما إن لم يتدخل من فوره لالتهم معه حفيدة أخيه أيضا. لذلك ولأجل كل تلك الكوارث وجب علينا أن نسلمه الصغيرة (كرمة) لأن ما خسرته في سنواتها الثلاث صار كافيا ولأنه لن ينتظر حتى تفقد حياتها هي الأخرى على حد تعبيره!

لم أرد.. صَمت! ظللت صامتا وهو يتهم أخي بأي شيء وكل شيء.. لم أجرؤ على رفع عيني تجاهه.. حتى سمعت همسات أبي المريض..

- يوسف: أهلا بك يا سيد (ياسين)؛ أعتذر لم أعلم بوجودك حتى هذه اللحظة.

لم يعد أبي كما كان بعد وفاة ابنه البكر؛ بدا الأمر وكأن روحه رُبطت بروح أخي، وما إن فارق (جمال) دنيانا حتى سحب معها روح أبي؛ ليصير من بعده رجلا جريحا لا قدرة لأطباء الأرض على مداواته. لذلك حينما بدأ السيد (ياسين) في مهاجمة أبي لم أستطع أن أرى أمامي أي شيء.

- ياسين: لا أهلا ولا سهلا يا سيد (يوسف) من فضلكم أعطوني (كرمة) من دون أي كلمة زائدة، ولأنني رجل طيب القلب

سأسمح لكم برؤيتها في أوقات محددة. وإلا أقسم بربي وما أعبد أن أنتزعها من وصايتكم بالقانون.

- أحمد: تكلم مع أبي باحترام أيها الرجل؛ لا تنس نفسك ومع من تتكلم.
- ياسين: مع من أتكلم أنا يا هذا؟ مع رجل لا حول له ولا قوة أنجب فأل شؤم على عائلته وكل من اقترب منها ذات يوم؛ أم أقل أنه قد أنجب لنا المدعو "ج"؟!

ما إن انتهى من كلماته حتى أمسكته من ذراعيه واندفعت به نحو الحائط في حركة هستيرية نتج عنها سماعي لصوت تهشم إحدى أضلعه بين يديي! وظللت أردد دون وعي مني:

- يا كلب يا حقير.. أتأتي لبيت الرجل ثم تسبه وتسب ابنه الميت، من هذا الذي تدعوه أخرق وتدعو ولده بفأل شؤم ومدعو" ج" يا لعين ، (جمال الذهبي) هو سيدك وابن سيدك.. أنسيت كم كنت تتلعثم في حضرته!.. والآن تأتي لبيته وبيت أبيه لتتندر عليه ولا تكتفي بل تزيدها بمحاولة سرقة حفيدته! اسمعني جيدا أيها الخرِف الجاهل.. أقسم أنا بربي وما أعبد إن لامست أقدامك النجسة هذه عتبة بيت أبي مرة أخرى لأجعلنك تغادر دونها! هل سمعتني؟ والآن فلترحل عن بيتنا ولا تعد إلينا مرة ثانية.. لقد

حكمت على نفسك بعدم رؤية (كرمة) طيلة العمر، إياك ومحاولة الحديث إليها في أي زمان ومكان.

اندمجت في غضبتي ولم أفق من حالتي الهيسترية حتى تدخل أبي وهرعت أمي مع بعض الخدم لنزع الرجل من بين يديي.. وما إن فعلوا حتى أسرع في هروبه وهو يصرخ من شدة ما ألحقته به من ألم!

وبرغم كل ما ناله مني ..لم أكتف، بل أحضرت كل العاملين لدينا في المنزل وأعطيتهم أمري الصارم ..إن اقترب هذا الرجل من بيتنا اكسروا قدميه دون شفقة أو رحمة. ارتعبوا مني جميعهم.. ورأيت حينها أبي يسقط أمامي دون إرادة منه فوق إحدى الأرائك وهو يبكي نفسه بين ذراعي أمي وما آل إليه حاله بعد رحيل سنده، وفلذة كبده الأول. وبرغم أنني قد فعلت ما كان ليفعله (جمال) وأكثر، إلا أن نظرات أبي المهزومة أدمت قلبي وأشعرتني بمدى عجزي.. فأنا مهما فعلت لن أعوضه فقد (جمال) أبدا. وما بين غضبي ووجيعة أبي ودموع أمي.. انتبهت فجأة إلى أن (كرمة) تقف من ورائنا تبكي وترتجف.. وكان على ما يبدو أنها قد شاهدت وسمعت كل شيء.

***

الزمان: مايو ٢٠٢٣
المكان: منزل أحمد الذهبي.. مدينة القاهرة

ها أنا أعود ثانية خائر القوى.. أبطيء الخطى علني أتعثر في طريقي فلا أصل لمستقر ألمي وندمي، إلا أنني أصل في نهاية الأمر رغما عني. أدخل إلى غرفتنا في خوف وقلق.. وكأنها مازالت هناك تنتظرني في الداخل.. أنظر إلى سريرنا وأراها ـ متخيلا إياها ـ جالسة على حافته تمشط شعرها البني في رقة ووداعة. أتذكر كل هذا وأبكيها كما أبكي أخي الأكبر.. ولكني لا أملك القدرة على البوح بكوني أبكيها..والأسوأ أنني ألوم نفسي لبكائي عليها.. فكيف يمكن للعين أن تدمع لأجل قاتلها في هذه الدنيا؟!

كيف أبكيكِ أيتها القاتلة..؟!

كيف أبكيكِ يا حبيبتي؟!

ولكن ما الحيلة.. إن فقدها يؤذيني كفقد أخي تماما، كلاهما قد مزقت خسارته نياط قلبي على حدة ..فماذا أفعل لروح عشقَت مُهلِكها؟!

أبكي وأنا أتجه لا إراديا نحو خزينة ملابسها أبحث عما بقى منها وإن كان كومة ملابس. منذ ما يقارب الشهرين وأنا أحيا بين نارين ..نار الفقد ونار الخزي.. كيف أحزن على من قتلت أخي وابنته وصديقي.. والأسوأ.. أنها قتلت ولدي.. ولدنا الكامن في أحشائها! ولدنا الذي دفن معها دون أن أراه.. وكل ذنبه أنه كان ابنا لـ (منال حاتم) أو بمعنى أدق (منال عادل الذهبي)!

- يا إلهي.. ماذا أفعل؟!

نطقها قلبي قبل لساني.. ولسان الحال يُغني عن السؤال. وساعتها سمعت صوت طرقات متتالية على باب المنزل. كان زائري آخر من أريد رؤيته الآن.. إنه مساعد أخي القديم، وصديقي المقرب الجديد.. وقاتل زوجتي وولدي أيضا.

إنه الضابط (يوسف)! الذي حاول منع مقتل رئيسه المباشر في العمل.. عن طريق قتل زوجتي الحبيبة بطلقة واحدة كان مستقرها قلب (منال) استطاع الضابط (يوسف) أن ينتزع روح حبيبتي أمام عيني! والأبشع من هذا أنه كان محقا فيما فعل.

أمامه قاتلة تُهدد لواء شرطة وشقيقه بالقتل بعد أن تمكنت من قتل ابنته وزوجها.. ماذا كان بإمكانه أن يفعل سوى أن يرديها قتيلة في الحال! إلا

أنه تأخر.. أصابها بعد أن أصابت (جمال) في مقتل! فلا نجا أخي.. ولا ولدي حتى على أقل تقدير..

كلما نظرت إليه رأيت أمامي قاتل ولدي.. لو أنه أصابها أي إصابة غير مميتة، ما كنت لأفقد ابني أيضا. ورغم كل هذا لم أستطع مواجهته منذ الحادث بأي مما أفكر فيه الآن! لأنني – في قرارة نفسي– أعلم أنه كان على حق.. هو لم يتعمد مقتلها. فالفاعل الأصلي كان (منال)..هي من قتلت الجميع وسعت للخراب حتى قضت علي نفسها وولدنا!

- يوسف: (أحمد) هل أنت بخير لماذا لا تجيبني؟!

كان يمسك بي ويهز جسدي في عنف و أنا أمامه كالصنم. أنظر داخل عينيه غارقا في دوامة من التيه والضياع.

- نعم بخير.. لماذا أتيت هنا؟

رددتها بلا مبالاة نازعا نفسي من بين يديه، ودلفت داخل المنزل غير عابيء بوجوده أو تصرفاته!

- يوسف: (أحمد) أفق لنفسك قليلا! يكفي والديك ما حل بهما من خراب إن لم تفكر فيهما.. فلتفكر في (كرمة) على الأقل. لقد هاتفتك أكثر من عشر مرات، لماذا لم تجب؟!
- أحمد: ولما هاتفتني كل هذا العدد من المرات.. لقد فقدتهم جميعا لم يعد هناك من خطر! فلم عساك تقلق إذا ؟!

- يوسف: لأن والدك مريض أيها الأبله .. وقد أخبر والدتك أنه يشعر بقرب أجله ويريد رؤيتك في الحال! والمسكينة مرتعبة تحاول الوصول إليك بلا جدوى وبعدما فشلت في الأمر هاتفتني أنا كي أجدك بطريقتي الخاصة.. الآن فهمت لماذا نبحث عنك يا بليد الشعور؟!
- أحمد: ماذا.. أبي؟!

انتفضت من مكاني وأنا ارتجف كمن لدغه عقرب! وانطلقت إلى الخارج على غير هدى مني تماما كما حدث لي حينما علمت بموت عمي وولده وحفيدته.. ولولا وجود (يوسف) بجانبي وقيادته للسيارة طيلة الطريق، ربما كنت فقدت ما تبقى لي من عقل!

***

الزمان: مايو ٢٠٢٣
المكان: منزل عائلة الذهبي.. مدينة القاهرة.

لا أعلم كيف مضت الدقائق وأنا في طريقي للبيت.. فيم فكرت؟ وماذا توقعت؟.. حقا لا أدري! إلا أن أكثر ما سيطر علي في حينها هو سرعة الوصول للمنزل ورؤية أبي قبل فوات الآوان.. أعلم جيدا أنه لا يمكن للإنسان أن يتصدى للموت.. لكنه على الأقل قادر على منح أحبابه لحظات آمنة قبل الرحيل!

في البيت جريت حتى صرت في مواجهة مباشرة مع غرفة أبي.. لا يفصلني عنه سوى باب خشبي، هكذا يبدو الأمر للناظرين.. أما بالنسبة لي فكان ما بيني وبينه أكبر من مجرد باب. لقد وقف خوفي من الفقد أمامي يواجهني في وقاحة منقطعة النظير، وكان علي أن أتلو كل ما تيسر من آي القرآن والدعاء والابتهال راجيا الله وحده ألا يُعيد علي آلام ذكرى فقد ووداع الأحبة مرة أخرى.

وبعد أن استجمعت قليلا من شجاعتي.. فتحت باب الغرفة لأجد أبي في سريره ما بين اليقظة والنوم وأمي بجانبه تحتضنه باكية بصوت

مسموع. لاحظ أبي وجودي سريعا وأشار إلي مبتسما كي أدنو منه، وكنت قد بدأت أنا أيضا في بكائي.

- يوسف: لا تبكِ يا حبيبي.. لا شيء يدعو للبكاء، يجب أن تسعدوا من أجلي، سوف أجتمع بولدي وحفيدتي قريبا.

كانت أمي قد فقدت قدرتها على الاحتمال وخرجت مسرعة من الغرفة.. بينما جلستُ أنا بجانبه محتضنا إياه في صمت قطعه أبي سريعا.

- يوسف: أنا أعلم بألمك يا بني ..أنت حزين لفقد زوجتك وابنك كما أنك حزين لفقد أخيك وابنته وصديقك، لكنك تداري حزنك الأول وتظهر الثاني خشية إغضابنا.. أتظن أباك سعيدا بمقتل زوجتك.. وابنة أخيه يا (أحمد)؟!

هممت لمبادلته الحديث... إلا أنه وضع أصابعه فوق شفتي وهو يردد:

- يوسف: أنا على علم بكل ما تشعر به وأدرك مدى غضبك وحزنك. ولكن الماضي لا يعود! أعلم أنك تتذكر أخاك وتندم على كل ما فعلته معه، ستتذكر لحظات الغضب وسترى نفسك و كأنك الشيطان بذاته.. وستتناسى في مقابل هذا سنوات من المحبة والأخوة الصادقة بينكما، ما أقصده هو ألا تقسو على نفسك يا ولدي، إن كان هناك مخطيء فهو أنا. أنا الذي لم يستطع حماية أولاده.. أنا من ضيَّع من يعول!

لم أستطع السيطرة على نفسي بعد حديثه المؤثر.. وبدأت في وصلة من البكاء والارتجاف في أحضان أبي المريض!

وصرت أرجوه أن يتماسك ولا يستسلم للموت هو الآخر، رجوته بكل طاقتي، ويبدو أن انهياري قد أتى بثماره المرجوة.. فقد عاد لأبي في صباح اليوم التالي بعضٌ من صحته القديمة.. وقد تبين لي لاحقا أن رغبته في إنقاذي تفوقت على رغبته في الموت.

لقد انتصرت عاطفة الأبوة بداخله.. واستطعت بعدها استعادة أبي من براثن الموت المحقق مرة أخرى.

***

الزمان: مايو ٢٠٢٣
المكان: إحدى مشافي الأمراض النفسية والعصبية.. مدينة القاهرة.

أرقبُها من خلف زجاج غرفتها.. أراها ولا تراني.. رغم وقوفي أمامها منذ عدة دقائق إلا أنها لم تلحظ وجودي أبدا! تثبت نظرها في سقف غرفتها وكأنها ترى ما لا يراه غيرها من العالمين. وها أنا أمامها، عبثًا أحاول أن أستجمع بعضا من رباطة جأشي حتى أدخل إليها ..عل وجودي أمامها يوقظ بعضا من وعيها المسلوب.

- صباح الخير يا أمي!

يسترعي صوتي انتباهها لتنظر إليَّ أخيرا وفي عينيها نظرة لامعة تمزج ما بين فرح لحظي وحزن أبدي عميق!

- (أحمد) ها أنت تأتي أخيرا يا ولدي!

تقولها وهي تنهض لاحتضاني وكذلك أفعل أنا.. متشممة إياي في سعادة الأمهات حينما تلتقط أنفوهن راحة الأبناء المحببة لنفوسهن الطيبة والتي لا تضاهيها جمالا -من وجهة نظرهن- أغلى العطور الباريسية!

- نعم أتيت يا أمي.. ها أنا هنا يا عزيزتي..(غادة)!

يا أمي الثانية وزوجة أخي الغالي!

لم أتفوه بهذه الجملة ..اكتفيت بترديدها فى داخلى فقط! بينما تدثرتُ بالصمت ليصير طاغيا على الموقف بيننا! وقتما تزوج (جمال) من زوجته (غادة)..و تزوج معه (سليم) ابن عمنا بالسيدة (غالية) شقيقة (غادة) كنت أقترب أنا من إتمام عامي الأول في هذه الدنيا.. وبمرور الوقت وولادة (سُلاف) ابنة أخي وكذلك ولادة (جميلة) ابنة ابن عمي (سليم) كنت أتم عامي الثاني . وبسبب وجود والدتين في المنزل... والدتي ووالدة (سُلاف)، صرت أنادي كلتيهما بلقب (ماما) ..كطفل صغير لم أكن متفهما في حينها خصوصية هذه الكلمة ومعانيها السامية، وكانت (غادة) ترعاني كما ترعى ابنتها.. لذلك صرت أفتخر أمام أقراني بأن جميع الفتيان يمتلكون أما واحدة وأبا واحدا.. بينما أنا وحدى الفتى المميز الذي يمتلك في منزله عدد اثنين من الآباء واثنتين من الأمهات!

ولا أعلم كيف تسرب الأمر حتى وصل لمسامع أمي السيدة الموقرة (نادية) إلا أن معرفتها بكلماتي لم تكن معرفة سعيدة أبدا. فقد ترتب عليها أنني قد نُبذت عدة أيام بسبب تلك الكلمات.. وكطفل صغير لم يتعد السادسة من العمر بدأت في الاعتذار لها حتى ترضى وإن كنت غير مدرك لخطئي!.. ووقتها جاءتني إجابتها والتي كانت أغرب من الخيال ذاته:

- عزيزي (أحمد) أنت فتى مميز بالفعل يا ولدي الحبيب.. وذلك لأنك تمتلك والدين لكنك لا تمتلك إلا أما واحدة.. وهي أنا!

بالرغم من أن حديثها لم يكن يحمل أي نوع من التهديد أو الوعيد أو حتى التوبيخ.. إلا أن طريقة إلقائها للكلمات على مسامع طفل في مثل عمري.. كانت كفيلة بإثارة كل مخاوفي المبكرة والمستمرة حتى الآن تجاه أمي!

ومن وقتها وحتى صرت رجلا ثلاثينيا.. لم أتفهم كيف أنها تسمح بتهميش دور أبي في حياتي مقابل تعظيم دور(جمال) فيها.. ولكن حينما يصل الأمر إلى سلطاتها هي فلن تسمح وقتها بوجود أي دور وإن كان صغيرا لزوجة ولدها الأكبر!

ورغم تسلط والدتي عليَّ طيلة عمري ومعاملتها الجافة تجاهي، كانت على صعيد آخر هي ذات المرأة التي تَغدق من فيض مشاعرها تجاه (جمال)! (جمال) الذي كان عادة ما يلاحظ ذلك ويعاتبها ..لتتغير بعدها قليلا معي ثم تعود سريعا إلى سيرتها الأولى. وبين جفاء أمي و طوفان المحبة الكبيرة الذي لقيته من أبي ومن (جمال)، استطعت أن أجد – منفردا– سلواي، معوضا ما فقدتُ من هنائي بفضل زوجة أخي و أمي البديلة (غادة).

(غادة) التي لم أتوقف يوما عن محبتها كأم.. ولم تتوقف هي عن محبتي كابن وإن كان بينا اتفاق غير معلن على فعل هذا في الخفاء بعيدا عن نظرات أمي الحادة. و ها أنا أراها الآن تحارب طواحين الهواء في إحدى غرف المصحات العقلية.. بعد ما أصابها جراء مقتل زوجها وابنتها. ولست بقادر على فعل شيء لها أكثر من الدعاء.

- هل ذهبت لبيت (سُلاف) كما وعدتني آخر مرة؟ هلا أحضرت لي ما أردت منك من ملابسها؟ أريد أن أتشمم رائحتها طيلة الوقت.

أشرت برأسي في علامة بالموافقة.

- سأحضرها اليوم يا أمي.. أعدكِ بذلك. ولكن ألن تتحسني قليلا؟ أريد أن آخذكِ معي.. أمي وأبي و(كرمة) يفتقدونكِ كثيرا.. ليس للبيت أي قيمة من دونك.
- ولمن أعود يا حبيبي.. لقد ذهب من كنت أحيا لأجلهم! هنا يعطونني دواءً جيدا.. يجعلني أنام طيلة الوقت.. وأثناء نومي أراهم مرة أخرى! صدقني إنني أرى (سُلاف) و(جمال) وحتى (رامي)! بالمناسبة إن ثلاثتهم هنا الآن ينظرون لي ويبتسمون!

كانت تتكلم بكل جدية وهي تعتدل في وضعيتها استعدادا لنوم طويل، معه فقط ترتستم فوق شفتيها ابتسامة كبيرة تُزين تقاسيم وجهها

الطيب فتزيد من حرقة قلبي عليها..ولم تنس أن تأخذ بين أحضانها أحد قمصان (جمال) الذي أحضرته لها منذ فترة كي تهدأ وتطمئن قليلا..والآن ها هي تريد بعضا من ملابس ابنتها الراحلة أيضا. لا أعلم كيف لا ينفجر قلبي لرؤية كل هذا؟!

لقد جُنَّت المرأة الوحيدة التي منحتني ما لم تمنحه لي أمي من رعاية ومحبة واهتمام... وكأنه صار لزاما عليَّ أن أشهد هلاك أفراد عائلتي وأحبائي بأبشع الطرق واحدا تلو الآخر.

غادرتُ الغرفة فور نومها..وذهبت لرؤية الطبيب والذي زاد من همي بتأكيده على سوء حالتها النفسية والعصبية بمرور الأيام. لم أتحمل رؤية أو سماع المزيد...فآثرت الرحيل والهرب مما أراه أمامي..

أما على أبواب المشفى فكنت على موعد مع مفاجأة أخرى وهي رؤية الضابط (يوسف).. ومع أنني لم أكن أود رؤيته ثانية، إلا أن قدومه لزيارة زوجة معلمه الراحل أثار في نفسي تعاطفا كبيرا معه. وبعد أقل من دقيقتين أقنعته أن يأتي معي لمنزل (سُلاف) كي أحضر ما تريده أمها ثم يمكننا بعدها العودة لزيارة (غادة) ثانية...وكأن الله قد أرسله لي من السماء حتى لا أخطو بقدمي -وحدي- عتبات ذلك المنزل.

ويا ليتني لم أفعل....!

***

الزمان: مايو ٢٠٢٣
المكان: منزل (رامي وسُلاف).. مدينة القاهرة.

حينما أخبرني (رامي) بمدى محبته الجارفة ل (سُلاف)..لم أصدق أذنيَّ، ولا أعلم لماذا غلبني الضحك في اللحظة التي نطق فيها برغبته في الزواج منها!

عادة ما يتعصب الرجال حينما يخبرهم الأصدقاء بمحبة إحدى فتيات عائلتهم، فمن العادي أن يتقدم أحد الأصدقاء أو المعارف لخطبة (سُلاف) وهو ما كان دائم الحدوث لها منذ بلغت عامها السادس عشر تقريبا، ولكن أن يعترف لي صديقي المقرب بمشاعره الحميمية تجاه إحدى نساء عائلتي.. فتلك هي الطامة الكبرى التي تستحق أن أكسر رأسه الصغير من أجلها! ولكن بدلا من أن أشرع في ضربه، شرعت في إطلاق ضحكاتي الهيسترية دون توقف!

وقد أخبرني (رامي) فيما بعد أنه توقع مني أن أكسّر عظامه، لا أن أكسر حاجز الصوت بضحكاتي المتتالية... وإلى الآن لا أعلم لماذا جاء رد فعلي بتلك الطريقة؟! ربما لأنني كنت أعلم مسبقا.

نعم هذه هي الحقيقة.. فصديقي كان أطيب من أن يُخفي علامات الشوق والاشتياق التي ترتسم على قسمات وجهه البريئة حينما يلمح (سُلاف) ولو صدفة أثناء زيارته لي. ربما لهذا لم أغضب..ربما لأنني أعلم حقيقة صديقي. وكيف أغضب من بريء القلب نقي السريرة حينما يخبرني بمحبته لابنة أخي! وأي رجل يستحقها أكثر منه؟!

هكذا بكل بساطة..قدر الله لهما زيجة يسيرة..كما قدر لهما نهاية أليمة!

وبين القدرين ربُطت سيرتهما وما تبقى من ذكرياتهما الجميلة بحياة كائن صغير جميل أسمياه (كرمة). كان هذا كل ما دار في مخيلتي حينما دلفت لبهو بيتهما ورأيت صورة زفافهما الكبيرة تُزين حائط البيت المهجور. لم أبكِ هذه المرة، فقد جافتني دموعي ولم أسعَ بدوري للبحث عنها. فقد كان أمامي مهمة أخرى..

اتجهت سريعا لغرفة نومهما لم أرد المكوث ومواجهة الذكريات أكثر من ذلك. بحثت بين ملابسهما بشكل عشوائي حتى سقطت مني إحدى حقائب (سُلاف) أسفل الخزانة..وبينما أبحث عما سقط مني وجدتُه.. دفتر أسود سميك مثبت بعناية شديدة أسفل قاعدة الخزانة الخشبية، ويبدو من المعاينة الأولى أنه وُضِع هكذا كي لا يلتفت إليه كائن من كان! وبما أن ذلك الجانب من الخزانة خاص بابنة أخي..فمن المؤكد أن هذا الدفتر يخصُّها.

ظللت أتفحصه بكلتا يدي وأزيل ما علق به من أتربة حتى تنامى إلى سمعي نغمات هاتفي الجوال. وكان المتصل (يوسف) الذي تركته في سيارته ينتظر ريثما أحضر ما أرادت زوجة أخي..وبينما أجيبه وأنا أتوقع استعجاله لعودتي فوجئت به يهمس بنبرة منكسرة في أذني ويردد....

- (أحمد) .. أعانك الله يا أخي، لله ما أخذ ولله ما أعطى؛ لقد أبلغني المشفى بوفاة السيدة (غادة فاضل) منذ قليل!

أحيانا تكون الخسارة بوابة عبور لحقيقة مطمورة..لم نكن لنعلم بها أبدا، وسرعان ما يتكشَّف لنا أن هذه الخسارة ما كانت سوى بداية صغيرة تخفي بين طياتها كارثة كبيرة.

***

الزمان: مايو ٢٠٢٣
المكان: مقابر آل الذهبي.. مدينة المنيا.

لا أعلم كيف يمر الوقت؟ كيف استطعت التأقلم سريعا مع فقد عمي وابن عمي وابنته بتلك الطريقة البشعة، زواجي من (منال)، مقتل (رامي) و(سُلاف)، خديعتي في (منال)، وأخيرا..مقتلها هي و (جمال)!

والآن أدفن (غادة) أمي الثانية وزوجة أخي الراحل.. آخر ما أتذكره هو بكائي الهستيري، احتضاني لـ (غادة) وتقبيلي ليديها..دموعي التي لم تتوقف عن الانهمار علها تعود وترأف بحالي... ولكن الوقت كان قد تأخر... لقد أخبرني الطبيب المعالج لها أنها استطاعت مغافلة طاقم التمريض وحصلت على علبة كاملة من الأقراص المنومة... وما لبثت أن تناولتها فور رحيلي. لم يستطيعوا إنقاذها والأسوأ أنني المسئول الأول..كيف لم ألحظ أنها تسعى دوما كي تنام أطول فترة ممكنة؟!

لماذا لم أستشف ما سوف تُقدم عليه عاجلا أم آجلا؟

"هنا يمنحونني دواءً جيدا..يجعلني أنام طيلة الوقت.. وأثناء نومي أراهم مرة أخرى! صدقني إنني أرى (سُلاف) و(جمال) و حتى (رامي)!"

ترن آخر كلماتها لي في أذني..أتذكر تلميحها لي برغبتها الأبدية في النوم حتى تراهم، أبكيها وأعتذر عن عدم فهمي..ليتني لم أتركك لحظة واحدة يا (غادة)!.. قلبي يعتصره الألم، وروحي مثقلة أكثر مما يتصور كل من حولي ولأول مرة منذ خاصمتني أمي في طفولتي لأنني أبديت بعضا من الولاء تجاه زوجة أخي ها أنا أكسر القاعدة علنا مظهرا حزني الشديد عليها أمام الجميع..وفي مقابر العائلة..وبينما أستعد لأضعها برفق إلى جوار زوجها وابنتها، رأيت في عيني أمي الحقيقية نظرات ما كان يجب أن ألمحها في مثل هذه اللحظات.. كانت نظرات غل وحقد أكثر منها حسرة وحزن! ولكن نظرا لما أنا فيه..لم أستطع أن أعيرها أدنى اهتمام..لا هي ولا حتى نظراتها المزعجة!

وكما ذهبنا عدنا في نفس اليوم، فبعد مقتل (جمال) كنت قد عمدتُ إلى أن أتخلص من كل ممتلكاتنا في المنيا حتى لا يدفعني الحنين إلى أن أرجع إليها ثانية متذكرا ما مضى ولن يستعاد.. كنت أعلم أنه في كل مرة سنعود فيها..ستزداد الوجيعة ولن تبرد النار حتى نرحل للقاهرة ثانية. لهذا تخلصت –عامدًا– من بيوتنا وأملاكنا هناك.. حتى لا يبقى ما يذكرنا ويؤلمنا.. وبعد كل هذا.. ليتني سلمت!

الزمان: مايو ٢٠٢٣
المكان: منزل عائلة الذهبي.. مدينة القاهرة.

بعد أن ودَّعنا (غادة) لمثواها الأخير..رحلت مع والديَّ من فورنا لمنزلنا بالقاهرة، وطيلة الطريق كان أبي يبكي زوجة ابنه كما لو كانت ابنته وهو يردد عبارات من قبيل " لماذا يا غادة؟ كيف هانت عليكِ حفيدتك الصغيرة يا ابنتي؟! يا الله ارحم هذه الفتاة..لم يعد لها من أحد سوانا!".

ورغم أساي لحال أبي إلا أن عجبي من حال أمي تفوق عليها! كيف تبدو بهذا الثبات..بينما كانت تدَّعي محبة الفقيدة طيلة عمرها؟!

ألم ندفن لتونا من كانت تعتبرها بمثابة ابنتها..؟ يا إلهي أين المفر والسبيل؟ لقد نال مني الفقد، ويبدو أن قساوة قلب أمي ستكمل على ما تبقى مني قريبا.

وقبل وصولي للبيت أوصيت كل العاملين به ألا يصدر عنهم ما يشي بالجزع والحزن أمام الصغيرة (كرمة) وكنت قد تدربت أنا وأبويَّ على إخفاء مشاعرنا أمامها، فبرغم كل الألم الواقع علينا لن نسمح للحزن بأن يتسلل لقلب فتاة لم تكمل عامها الرابع في هذه الدنيا. يكفيها اختفاء أبويها وجدَّيها بغتة من عالمها الصغير.

اطمئننت على أبي واستمريت في تجنب أمي، خاصة عندما تعمدَت تغيير لهجتها معي كي ألاحظ غضبها وأبادر بالاعتذار منها ،كما تعودَت

مني طيلة عمري أثناء محاولاتي الدؤوبة في الاستقصاء عن حالتها المزاجية. وما إن يتبين لي ما بدر مني وأتيقن من أنني المتسبب في إغضابها، أسرع إليها وأنا رهن أسر الابتزاز العاطفي لأعتذر عن كل ما فعلت، حتى وإن كنت غير مقتنع بخطئي في حقها!

..وهكذا استمر حالي في معظم الأوقات.. إلا أنني لم أفعل ما أرادته اليوم. وانسحبت من أمامها وروحي خواء... حتى سمعت صوته.. ولا أعلم لم هُيئ لي أني أراه أيضا!

- اذهب للاستمتاع بحمام ماء ساخن وكوب من القهوة وسترى كيف يتغير بعدها كل شيء للأفضل.
- (جمال) أكان هذا أنت يا أخي؟!

إلى الآن لا أعلم إن كان ما رأيته حقيقة أم وهما؟!.. بعد أن تركت أبويَّ في غرفتهما وخرجت متجها إلى غرفتي شاهدته أمامي .. إنه طيف (جمال) يُحدثني! ولكنه لم يكن وحده هذه المرة..فقد رأيت بجانبه (غادة) و(سُلاف) و(رامي)!

أربعتهم كانوا يجلسون على الأريكة المواجهة لباب غرفتي! وبدلا من أن أرتعب مما شاهدت، ابتسمت لهم جميعا واكتفيت بإيماءة من رأسي لـ (جمال) وهي إشارة استخدمتها طيلة عمري في التعبير له عن موافقتي على

كل ما يأمرني به. أسفل قطرات المياه الساخنة امتزجت دموعي بالماء.. فما عدت أستبين الفارق بين بكائي وبين القطرات.

- اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعفُ عنا يا رحيم.. يا الله يا ولي الصابرين.

فيما بعد اتجهت للصلاة والدعاء.. وابتهلت لله -عز وجل- عله يستجيب لي سبحانه ويعفو عنا.كما لم أنس الدعاء لـ (غادة) بالرحمة والمغفرة في ليلتها الأولى في قبرها إلى أن قطع تركيزي ظل صغير يقف متكوما وحيدا على باب الغرفة.

- (كرمة) أهذه أنتِ يا عزيزتي..لما تقفين هكذا يا ابنتي؟!
- أريد أمي وأبي الآن!

يا الله ماذا أفعل..لقد نفد رصيدي من الحجج! لقد أخبرنا الفتاة –كذبًا- بسفر والديها، وبعد رحيلهما ورحيل (جمال) وانهيار (غادة) اضطررنا لإخبارها بأنهم سافروا جميعا معا من أجل أمر هام... ماذا أفعل الآن وبم أخبرها؟ أرشدني يا إلهي كيف أتصرف.

وفجأة هداني ربي إلى أن أسايرها في الحديث ثم أغير بعدها دفته معها.

- حسنا لقد تأخر الوقت..ما رأيك أن ننام الآن ونتحدث صباحا؟

استقبلت الصغيرة كلماتي في صمت أولا، ثم ما لبثت أن اقتربت مني ببطء وحينها رأيت الدموع تترقرق في عينيها الصغيرتين وهي تردد في ألم..

- أنا لا أستطيع النوم وحدي..أخاف كثيرا!

لم أتحمل رؤيتها على هذه الهيئة كنت أحاول كبت دموعي أنا الآخر... وما هي إلا لحظات حتى انتهت الليلة بنومها هادئة إلى جواري، ولأول مرة منذ عدة أشهر استطعت النوم لأكثر من خمس عشرة ساعة متواصلة دون رؤية أحلامي المزعجة التي اعتدتها في الفترة الأخيرة. بيد أن شيئا آخر قد أراحني ليلتها أكثر من النوم.. كأن براءة هذه الصغيرة أيقظت في نفسي شعورا لم أعهده من قبل، وسرعان ما سيستبين لي لاحقا ماهية ذاك الشعور.. لقد كانت عاطفة الأبوة!

ظهيرة اليوم التالي أيقظني صوت أحد الخدم وكان قد أحضر لي القهوة والإفطار. ها قد بدأت سلسلة الحيل النفسية التي تجيد أمي حياكتها ببراعة فائقة! البارحة تعمد إلى تغيير نبرتها معي، واليوم ترسل لي من يرمي إلي بالطعام والشراب! حتى (كرمة) لم تتفقد أحوالها كما هو مفروض، ولم ترسل من يفعل، لأنها لو فعلت لما وجدتها في غرفتها من الأساس وكانت لتبدأ في رحلة بحثها عنها.

كنت لأعذرها لو أنها حزينة لفقد (غادة).. ولكن غضبي منها ازداد لأنني أعلم أن مشاعر النرجسية لديها تتفوق على عاطفة الأمومة داخلها في كل مرة.

تناولت قهوتي وأيقظت (كرمة) كي تتناول هي الطعام. كان يبدو على وجهها الناعس الصغير شيءٌ من الراحة، لاحقا.. سأعلم أنها في تلك الليلة شعرت وكأنها نائمة في حجر والدها.. لقد استطاع كلانا أن يُطبّب جرح الآخر.

انتهيت من شرب قهوتي، توضأت، وصليت، ولم أنس تقبيل رأس صغيرتي وتوديعها هي الأخرى، ثم انطلقت من فوري لرؤية أبي والاطمئنان عليه..كان يجلس في فراشه هادئا رغم حزنه، يسبح الله ويذكره بينما أمي إلى جواره صامتة، ترقبني بتحفز يشي باستمرار سلوكها العدائي تجاهي..حتى قطعت أنا صمتها المفتعل وأدرت بيننا الحوار التالي:

- أمي ..هل أنتِ بخير؟
- حمدا لله على كل شيء.
- الحمد لله دائما وأبدا..أقصد هل صحتك على ما يرام، أم تراكِ مريضة -معاذ الله- وتحجبين عني الأمر؟!

اتجهَت حينها بنظراتها إليّ، وأجابتني منفعلة:

- قلت لك مرة أني بخير.. هل أصبحت غبيا لا تفهم معنى الكلمات مؤخرا أم ماذا؟!

لم يتفهم أبي سبب غلظتها المبالغ فيها، وحاورها قائلا:

- ما بكِ تحدثين الفتى هكذا؟ لم يقترف الفتى ذنبًا يا (نادية) فقط أراد الاطمئنان عليكِ!
- والله ما تبقى غيرك ليعلمني كيف أكلم أبنائي! على الأقل أنا لم أضرب ولدي الأكبر يوم وفاة ابنته ولم أتسبب في موته مثلما فعلت أنت مع (جمال)!

لم أحتمل كلماتها القاسية لوالدي، ولا نظرة الهزيمة التي احتلت تقاسيم وجهه فور تلقيه لكلماتها التي هبطت عليه كما الصاعقة!

.. وما أدمى قلبي أكثر، كان صمته المطبق إزاء تجرئها الذي لم أجد له تفسيرا!! صمت أبي ولم يعلق لذلك أخذت أنا دوره في التعليق قائلا:

- كيف تكلمين أبي بتلك الطريقة؟! أبي لم يتسبب في مقتل أخي يا أمي وأنا لم أفعل أكثر من محاولة الاطمئنان عليك الآن..كل ما في الأمر أن (كرمة) قضت ليلتها الماضية في غرفتي.

كانت وجلة خائفة وركنت إليّ البارحة، وأنتِ لم تستشعري غيابها، أو ترسلي من يطمئن عليها.. لأنكِ لو فعلتِ لعلمتِ اختفاءها من غرفتها!

لذلك، ومن أجل عدم اعتنائك بحفيدة (جمال) -الذي تُعيِّرين أبي بمقتله الآن- جئت لأطمئن عليكِ وأسألك عما بكِ، لأنكِ لا يمكن أن تكوني على ما يرام، وتغفلين عن أحوال طفلة صغيرة وضعها الله أمانة بين يديكِ بعد أن فقدت والديها وجديها فجأة في هذه الدنيا! كانت هذه أول مرة أرفع فيها صوتي في وجه أمي.. وكانت أيضا أول مرة تبدو فيها نادمة على شيء ما أمامي.

- (أحمد) أنا لم أقصد أن.....

لم أدعها تُكمل وقطعت حديثها مرددا:

- لم تقصدي ماذا؟ تجاهلي منذ البارحة أم تجاهل (كرمة) أم إهانة أبي؟! أم أقل لم تقصدي إظهار غضبك لحزني على وفاة (غادة) المأساوية! هل حقا تغارين من امرأة ماتت منتحرة يا أمي؟ امرأة فقدت كل أحبابها في هذه الدنيا وماتت قهرا على فراقهم.. امرأة كنتِ تدعين زورا محبتها كابنة لكِ! أخبريني يا أمي ما الذي لم تقصدينه حقا..؟!

هكذا انفجرتُ كالمدفع في وجه أمي لأول مرة في عمري كله، بينما هي أمامي صامتة حزينة تنظر للأرض والدموع تنهمر منها كما السيل، إلى أن رفعت رأسها فجأة مرددة في حسرة وألم:

- لقد أحببتها كابنتي يا (أحمد)..ولكن تفضيلك لها عليَّ طيلة الوقت كسر قلبي! أنت ولدي أنا، لماذا اتخذتَ زوجة أخيك أمًّا بديلة لك، بينما أنا أمامك على قيد الحياة؟!
- لأنكِ وبكل بساطة لم تستطيعي أن تكوني أما حقيقية لي!
- (أحمد) توقف.. لا تقل هذا يا ولدي! أمك أفضل أم في هذه الدنيا.

قالها أبي المسكين في محاولة للدفاع عن زوجته رغم قسوتها عليه. صمتٌ لبرهة استكملت بعدها حديثي:

- لا يا أبي أنا لن أسمح بتزييف الحقائق ثانية!

لطالما كانت السيدة (نادية) والدة لـ (جمال) فقط رحمه الله، بينما ظللت أنا على الهامش طيلة عمري.. وأبي هذا الذي تتهمينه بالتسبب في مقتل ولده لم ينهرني يوما ولم يفرق بيني وبين أخي في أي شيء..لقد عامل كلينا بكل رحمة، وأغدق علينا من فيض محبته.

يا ليتكِ أحببتني يوما ربع مقدار محبتك لـ (جمال) يا أمي. لقد عاملتني (غادة) كأم، بينما عاملتني أنتِ كتابع لولدك الأكبر! عندما أخبروني بموت (غادة) مادت الأرض تحت قدميّ بالمشفى وانخرطت في البكاء أرجوها كي تعود لي.. لحظتها شعرت بيتمٍ حقيقي!..والآن بدلا من أن تحاولي تعويضي عما مضى، تستمرين في خذلاني أكثر! ماذا فعلت لكِ يا

أمي حتى تكرهينني هكذا؟! أنا ولدك الصغير.. آخر العنقود كما تقول السيدات عن أصغر أولادهم، كيف تكرهينني وتكرهين من يحبني يا أمي؟!

انتهيت من حديثي ولاحظت أن ثلاثتنا كان يبكي. أنا أصرخ باكيا في وجه أمي، وأبي وأمي يبكيان في صمت!

- (أحمد) اسمعني يا ولدي أنا...!
- أنتِ غير مسئولة عن أي شيء يتعلق بي منذ اليوم!

حتى (كرمة) لقد اعتبرتها بمثابة ابنة لي وأنا المسئول عنها...أما أنتِ فلا شأن لكِ بي أو بها. الآن أفهم لماذا لاتعتنين بها..لأنها تشبه (غادة) في ملامحها. بالطبع لن تحبي مَن تذكركِ بها!

لم أنتظر ردا منها وخرجت فورا من الغرفة، واتجهت للبحث عن مدبرة المنزل وقد أعطيتها أمري المباشر بالبحث عن مربية من أجل (كرمة) وبداية من الآن سيكون عليها أن تقدم لي تقريرا بكل ما يخص الصغيرة لأنني المسئول الوحيد عنها هنا.

***

الزمان: مايو ٢٠٢٣
المكان: مكتب أحمد الذهبي للمحاماة.. مدينة القاهرة.

مضى ما يزيد عن الثلاثة أشهر وأنا غير قادر على ممارسة أحب الأعمال إلى قلبي..المحاماة! وحتى الكلية لم أذهب إليها ولم أستطع التدريس للطلاب بعدما حدث. لم أعد أصلح لشيء حرفيا.. المحاماة وتدريس القانون بالنسبة لي هما حلم العمر الماضي، ووجيعة الحاضر، وخوفي من المستقبل. ولكن منذ فقدي لـ (سُلاف) و(رامي) ووصولا لموت (جمال) و(منال) و(غادة) وأنا لا أملك أي قدرة على العمل. أكتفي فقط بالذهاب إلى المكتب وأنا أدَّعي الانشغال لكثرة أعبائي وأعمالي.. ولكن الحقيقة أني لا أفعل أي شيء! فكل القضايا التي تولاها مكتبي مؤخرا يعمل عليها المحامون العاملون لدي بالمكتب..بينما أنا مجرد رئيس شرفي للعمل.

وفي أقل من ثلاثة أشهر أصبحت مجرد مالك لهذا المكان. تأتي القضايا على اسمي، بينما يعمل عليها غيري، و أنا كالشبح لا طاقة لي على فعل شيء. الشيء الوحيد الذي صار دافعا لي كي أستمر في حياتي هو وجود (كرمة) بها.

لولاها لمتُّ كمدا. الحزن يأكل قلبي وهاتفي أمامي لا يتوقف عن الرنين، تتصل بي أمي مرارا وأنا لا أجيب.. بم أجيبها وماذا يمكنني أن أقول؟ لقد انفجرت في وجهها وانتهى الأمر.. كيف فعلت ما فعلت؟! إنها والدتي رغم كل شيء..

- د/ أحمد.. هل تسمعني؟

وجدت مديرة مكتبي أمامي فجأة تحدثني، لا أعلم متى دخلت، كل ما أتذكره هو حديثها المفاجئ لي.

- متي دخلتِ للغرفة؟
- منذ دقيقة تقريبا، لقد طرقت الباب عدة مرات دون رد، قلقت بعدها وفتحت الباب..لأجدك على هذه الحالة أحدثك ولا تجيبني. أعتذر عن دخولي دون إذنك يا دكتور..لقد قلقت عليك حقا.
- لا داعى للاعتذار.. أنا المخطىء، لم أسمعك ولم أنتبه لوجودك.. حسنا فلتخبريني ما الأمر الذي جئتِ من أجله؟
- الضابط (يوسف) ينتظرك خارجا يا سيدي.. هل أسمح بدخوله؟
- نعم.. قولي له أن يتفضل وحضري لنا مشروبا باردا يكفيني أنا و(يوسف) ما تناولناه من القهوة السادة طيلة شهور.
- حاضر.

قالتها وعلى وجهها ترتسم معالم الحزن الهادئ، ولحظتها وجدته أمامي.

يوسف:

- أعانك الله يا (أحمد).. ورحم ذويك اللهم آمين.

كان يحدثني وأنا خائر القوى، لا قدرة لي حتى على الوقوف. أجلس أمامه كالمومياء فوق كرسي المكتب لا حول لي ولا قوة. وإذا به فجأة يحتضنني ويبكي.. كان يبكي بحرقة قلب حقيقية، وأنا صامت نظراتي تائهة وقلبي ثقيل كما الحجر. دخلت علينا مديرة مكتبي ثانية.. وضعت المشروبات وغادرت دون كلام. ربت على كتفه في هدوء وأنا أردد:

- قم يا (يوسف) وامسح عبراتك..لقد مر الأمر وانتهى، فقدت عائلتي لم يعد هناك الكثير مما يخيفني في هذه الحياة. الحاضر راكد..والماضي لا يعود.

ثم أكملت في محاولة لتصنع الثبات أمامه..

- هيا تناول مشروبك.. لا مزيد من فناجين القهوة السوداء هنا.
- يوسف: (أحمد) أنا أعلم أن جزءا منك لا يتقبلني، وأي رجل هذا الذي يمكنه أن يتقبل مَن قتل زوجته وابنه..وإن كان ضابطا يقوم بعمله؟! ولكن صدقني أنا لم أتعمد قتلها! (منال) هي المتسببة فيما حدث.. أنا فقط سعيت لحمايتك وحماية السيد (جمال) رحمه الله.

- توقف يا (يوسف) أنا لم أطالبك بتبرير ما.
- يوسف: حسنا يا (أحمد) لن أطيل عليك، باختصار لقد جئت من أجل عمل هام أريد أن أطلعك عليه، ولك مطلق الحرية في قبوله أو رفضه..ولكن أريدك أن تفكر أولا في الأمر. لقد أخبرني السيد (جمال) -رحمة الله عليه- أنه اكتشف ميلك لدراسة القانون حينما كنت تساعده أثناء عمله، وقد مدح ذكاءك كثيرا ولطالما تباهى بك.. لذلك أردت أن أشركك في تلك القضية تحديدا. تفضل اقرأ أحداثها أولا، وأعلمني بقرارك.

في قرارة نفسي أردت رفض هذا الأمر.. فكيف لرجل ليس قادرا على إتمام عمله الخاص أن يقبل أعمالا جديدة لا شأن له بها. ولكن شيئا ما دفعني للقبول.. قبول ما سيغير حياتي للأبد!

وفي نهاية اليوم..وعند عودتي للبيت وجدت مدبرة المنزل قد أحضرت المربية المطلوبة لـ (كرمة) كانت فتاة رقيقة تدرس في كلية الحقوق هي الأخرى، قريبة من بعيد لمدبرة المنزل وكانت بمثابة الابنة لها، تعلم أن ظروفها المادية متعسرة وأنها تبحث مؤخرا عن عمل يساعدها إلى أن تنتهي من دراستها وتعمل في مجال المحاماة.

- ما اسمك يا آنسة؟
- (فيروز) اسمي.. (فيروز نورالدين).

قالتها وهي ترفع وجهها على استحياء، وبدت حينها ملامحها الوادعة الهادئة.. شعرت ساعتها بالاطمئنان نحوها، وتيقنت من أنها الاختيار المناسب. ولهذا شرعتُ في شرح مهام الوظيفة المطلوبة منها...

- حسنا يا آنسة (فيروز) ما أطلبه منك بسيط للغاية ويتناسب مع ظروف دراستك.. لكنه يتطلب إقامتك الكاملة في منزلنا وهذا طبعًا مع الأجر الذي ترتضينه. باختصار (كرمة) هي حفيدة أخي الأكبر (جمال الذهبي) رحمه الله.. والفتاة فقدت في أقل من ثلاثة أشهر والديها وجديها، ولم يتبقى لها سواي أنا ووالديَّ. لقد صارت ابنتي ويعلم الله مكانتها في قلبي، ولا أريد منك سوى الاهتمام بمواعيد طعامها وشرابها والاهتمام بمظهرها الخاص. الفتاة لم تتجاوز عمر الثلاث سنوات.. وستشاهدين بنفسك كم هي طفلة رقيقة ووديعة. بالطبع هي لا تعلم أين ذهبت عائلتها فجأة، ومن الطبيعي أن تعاني من التشتت والحزن، لذلك أفكر في الوقت الحالي أن استعين بطبيب نفسي للأطفال يعالج آثار فقدها المبكر لأفراد أسرتها. وقد أخبرتها أن أبويها وجديها قد سافروا من أجل عمل هام، ريثما أجد طريقة لتمهيد الأمر لها..والآن هل تتفهمين طبيعة عملك يا آنسة (فيروز)؟

أومأت برأسها وهي تبتسم في وداعة ورقة توحي بالرضا والتفهم. هنا تدخلت مدبرة المنزل قائلة:

- بالطبع تتفهمك يا دكتور..(فيروز) فتاة ملتزمة، طيبة، وقد أخبرتها بطبيعة عملها قبل مجيئك، كما أنها لاقت استحسان والدك ووالدتك أيضا. بعد إذنك اسمح لي أن آتي بـ (كرمة) لتتعرف عليها (فيروز).

ابتسمت لها فذهبت من فورها للبحث عن الصغيرة بينما بقيت أنا مع (فيروز) وحدنا قليلا.. خلال هذه الدقائق أخبرتني أن والدتها كانت صديقة مقربة لمدبرة منزلنا وبعد وفاتها صارت في منزلة والدتها تماما، وكانت تعلم ببحثها عن وظيفة منذ فترة فرشحتها لي فور طلبي لمربية. الأشياء الجيدة تأتي لنعرف قيمتها فيما بعد، وكذلك الأشخاص.. خاصة (فيروز).

لم يمر وقت طويل حتى جاءت (كرمة) بصحبة أبي وأمي ومدبرة المنزل..وكان يبدو على والديَّ ارتياحهما لـ (فيروز). كان هذا الجزء طبيعيا... أما ما لم أتفهمه هو تصرف (كرمة)! لقد توقعت حينها أن تتخوف من رؤية شخصية جديدة لا تعلم عنها شيئا، إلا أنها انجذبت إليها سريعا فور رؤيتها ورغم استغرابي للأمر ابتسمت راضيا وكذلك كان حال والديَّ.

وقبل نهاية اليوم اتفقت مع (فيروز) على أجر كبير على حد وصفها، إلا أنني وجدته مناسبا لما ستبذله من جهد مع (كرمة).

أخبرتني فيما بعد برغبتها في العودة لبيتها كي تجمع آخر أغراضها منه وتعود بعدها للإقامة معنا ولا أعلم ما الذي دفعني لمرافقتها ليلتها. صحيح أنني لم أرد لها أن ترحل يومها وحيدة -وكان الوقت قد تأخر- ولكن كان من الممكن أن أرسل معها السائق الخاص بنا، إلا أنني ذهبت أنا! شيءٌ ما دفعني للذهاب وترتب عليه رؤية ما كنت تناسيت وجوده، دفتر (سُلاف).. هل تذكرونه؟

كانت الفتاة تسكن داخل بيت طالبات في حي بسيط، هادئ، وأثناء انتظارها لمحته في السيارة. الدفتر الأسود الذي تناسيت وجوده تماما، لقد أعماني موت (غادة) رحمها الله عن رؤياه والآن صار لزاما علي قراءته. ترى ما سره؟!.. وما الذي يدفع (سُلاف) لإخفاء دفترها في مكان مثل هذا؟ هل كانت تخفيه عن أعين (رامي) رحمه الله، أم كانت تخشى أن تلهو به (كرمة) وتعبث به دون قصد منها؟ ربما كانت تُدون داخله قصة أو رواية جديدة؟ ولكن إن كان كذلك فلما تراها تخفيه؟! لا أعلم ولكن كل ما كنت أعلمه حينها أنني يجب علي قراءته...

بعد أن انتهت (فيروز) وعدنا للمنزل وجدت أمي تنتظرني في غرفتي، وكانت عيناها متورمتين من كثرة البكاء. وقد آلمني مظهرها رغم غضبي الشديد منها، فهي أمي التي أحبها مهما فعلت وأخشى فقدها هي الأخرى. ظل كلانا ينظر للآخر عدة ثوانٍ حتى اقتربت مني واحتضنتني فجأة وبقوة وهي تردد باكية:

- أنت لا تعلم كم تحبك أمك يا (أحمد)، ربما يهيأ لك أنني فضلت (جمال) عليك أو حتى أحببته أكثر منك.. ولكن صدقني أنا لا أفرق بين أبنائي أبدا. أنت لا تعلم ما تعرض له (جمال) في شبابه، نعم هو أخطأ ولكن الحسرة هي ما بدّلَت حاله! وما يحطم قلبي أنني المتسببة فيما وصل إليه.. أنا السبب يا بني أنا السبب! سامحني أرجوك.. أنا غير قادرة على خسارة ولد آخر، أنت الوحيد الذي تبقى لي كيف تظن أن تكرهك أمك؟! ولكن معك كل الحق يا حبيبي، أسلوبي الخاطيء معك هو السبب.. وجيعتك هي وجيعتي يا بني، وغضبي لم يكن من حبك لـ (غادة) -رحمها الله- ولا لأن مشاعري كانت زائفة تجاهها كما تتصور.. وإنما بسبب غيرتي من محبتك الشديدة لها. وبدلا من أن أصارحك بهذا وأقربك مني أكثر.. ظهرت غيرتي على النحو الذي ساءك! أنت لا تعلم كيف شعرت وقتما علمت بما أبديته من حزن جارف -في المشفى- حزنا على (غادة)! هذا يعني أنني غيرذات أثر في حياتك. إذا اتخذت أخرى أما لك في وجود أمك، فهذا يعني ضمنيا أنك لم تحب أمك الحقيقية يوما! أما عن (كرمة) فأنا لم أهملها يا ولدي.. لقد رأيتها تنام بين ذراعيك في هدوء وسكينة حينما أتيت للاطمئنان عليك البارحة، وهدأت نفسي على ما بها من آلام حينما رأيت مظهركما المطمئن، أنا لم أرها هادئة هكذا إلا

زمن أخيك رحمه الله.. أتعلم أنني قبَّلتُ رأسك وأنت نائم تأثرًا بالمشهد؟ أنت ولدي يا (أحمد) ابني الصغير..أرجوك لا تظن بوالدتك السوء. لقد أمضيت عمري كله أخشى كراهيتك لي وها قد حدثت ولم أملك منعها بحماقتي.

لا أذكر كم ظللت محتضنا أمي، كم مرة قبَّلت هي رأسي، كم مرة قبلت أنا يديها، ولا أتذكر كم بقينا نتكلم سويا ونبكي معا. وما دونته الآن من حوارها هو ما تبقى في ذاكرتي.. كل ما أنا آكدٌ منه الآن هو شعوري الهائل بالراحة والاطمئنان في حضن أمي. ولأول مرة في عمري كله شعرت بمحبة والدتي الصادقة وحنانها، لقد استعدت ـ ليلتها ـ أمي من جديد، وأصرت هي حينها أن نتناول عشاءنا كعائلة مترابطة رغم الخسارة والفقد.

كان أبي فرحا لاهتمامي الشديد بـ (كرمة) ولتصالحي مع أمي، وبعد العشاء طلبت مني أمي أن أترك (كرمة) تبيت معها هذه الليلة. وافقت لأنني أردت قراءة ملف القضية الخاص بعمل (يوسف)، كما أنني أردت الانتهاء من الاطلاع على دفتر (سُلاف).

ومن هنا كانت البداية...

بداية اللعنة!

بسم الله الرحمن الرحيم

نتيجة التقارير والتحريات المبدئية الصادرة عن مديرية أمن القاهرة بخصوص قضية مقتل الإعلامية والرسامة الشهيرة (ماهيتاب كاظم).

ملحوظة هامة: هذا التقرير غير رسمي ولا يُعتد به كسند قانوني ذى قيمة، وإنما أُعد خصيصا من أجل الاستعانة بآراء بعض الخبراء القانونيين الموثوقين من قبل جهات التحقيق.

الاسم الرباعي: ماهيتاب كمال رشيد كاظم.

السن: ٢٨ سنة.

المهنة: إعلامية ورسامة شهيرة.

الحالة الاجتماعية: متزوجة من السيد (مالك السويفي).

الأبناء: (رشيد مالك السويفي) فتى يبلغ الرابعة من عمره.

زمان ومكان الوفاة: في يوم التاسع والعشرين من شهر مايو لعام ٢٠٢٣م أصيبت السيدة (ماهيتاب كاظم) بحالة شديدة من الإعياء أثناء تواجدها بقصر جدها (رشيد كاظم)، توفيت بعدها بدقائق معدودة، تحديدا أثناء احتفال الأسرة في تجمع صغير بعيد ميلاد الحفيد (رشيد السويفي).

سبب الوفاة: التسمم نتيجة تناول جرعة عالية من سم الفئران.

المتهم الرئيسي والمشتبه به الأول في القضية: الجدة من الأب السيدة (عائشة داود) .

مهنة المتهمة: سيدة أعمال.

سن المتهمة: ٧٤ سنة.

الحالة الاجتماعية للمتهمة: متزوجة من السيد (رشيد كاظم).

أبناء المتهمة: ابن وحيد.. وهو السيد (كمال كاظم) والد القتيلة.

مبررات الاتهام: تهديد صريح ومباشر من المتهمة أمام عدد كبير من أفراد الأسرة و الخدم داخل المنزل، أعقبه وفاة المجني عليها في نفس المكان مسمومة بعد عدة ساعات من حدوث المشادة الكلامية والتهديد.

(تقرير الحادثة المفصل)

حسب رواية وشهادة الشهود وهم الخدم والعاملون بقصر (رشيد كاظم)، أقروا جميعا بتوتر العلاقة بين المجني عليها (ماهيتاب كاظم) والمتهمة (عائشة داود)، كما أكدوا على صدور أصوات عالية تكررت مع تواجد الاثنتين وحدهما داخل غرفة نوم المتهمة.

وفي يوم التاسع والعشرين من مايو الحالي تصادف احتفال الأسرة بعيد ميلاد ابن المجني عليها. ومع تواجد المجني عليها طيلة اليوم في منزل عائلة والدها.. تنامى إلى مسامع الخدم وقتها مشادة كلامية مسموعة الصوت بين الجدة والحفيدة. وبعد أن تدخل أفراد الأسرة في محاولة لإنهاء الخلاف، استمع الجميع للمتهمة وهي توجه تهديدا صريحا بالقتل للمجني عليها في حالة إصرارها على ما تنوي فعله. ووقتها بدأ زوج المتهمة في لوم زوجته وأنهى الخلاف بحجة أن اليوم هو عيد الميلاد الرابع لابن حفيدتهم، ولن يسمح بإفساده أبدا.

...بعد عدة ساعات بدأت الأسرة في تناول الكعك احتفالا بالمناسبة، وتوجهت بعدها المتهمة للمجني عليها وأعطتها كوبا من عصير البرتقال، أعدته خصيصا لها بحجة مصالحتها عما بدر منها في بداية اليوم، ولم تمض عدة دقائق حتى أصيبت المجني

عليها بحالة حادة من الإعياء والقيء هرعت على إثرها الأسرة في طلب عربة إسعاف.. ولكن المجني عليها كانت قد توفيت فعليا في غرفتها قبيل وصول رجال الإسعاف.

عند توقيع الكشف الطبي المبدئي عليها من قبل رجال الإسعاف تشككوا جميعا في كون الوفاة طبيعية مما استدعى إبلاغ الشرطة فورا والتي تم على أساسها إحالة الأمر للنيابة، وقد أمرت بإجراء التشريح الطبي الفوري لمعرفة سبب الوفاة. وأكد تقرير الطب الشرعي وجود شبهة جنائية واضحة لأن الوفاة تمت على إثر تناول المتهمة لعصير مخلوط بسم الفئران. كما تم إثبات تواجد آثار للسم بكوب عصير المجني عليها.. ومع وجود التهديد وشهادة الشهود على ما حدث من مشادات وتهديدات وشهادتهم الأكيدة التي أكدت إصرار المتهمة على إعداد المشروبات بنفسها.. خاصة وأنها هي من قامت بإعطاء الكوب للمجني عليها أمام جميع أفراد الأسرة.

ومع عدم وجود أي بصمات أخرى على الكوب عدا بصمات المتهمة والمجني عليها. فقد أمرت النيابة بحبس المتهمة أربعة أيام على ذمة التحقيقات.

***

بعدما انتهيت من قراءة التقارير أصابتني الصاعقة حرفيا.. كيف هذا؟ هل توفيت (ماهيتاب كاظم) مقتولة على يدي جدتها؟!

استغفرت الله بعدما انتهيت من قراءة التقرير، ربّاهُ، كيف لي عدم معرفتي بالأمر حتى اليوم؟! ولكن ما باليد حيلة لقد لقيت الفتاة ربها يوم وفاة (غادة) وكانت حالتي السيئة مانعا لي من معرفة أخبار الناس من حولي...

وكان مكمن دهشتي ليس لأن (ماهيتاب) رحمها الله إعلامية ورسامة شهيرة محبوبة مجتمعيا، ولكن لكونها صديقة مقربة لـ (سُلاف) رحمة الله عليها. لطالما زارتنا في بيتنا، لاسيما وأن صداقتها بدأت مع (سُلاف) منذ طفولتهما. ووقت مقتلها رأيت علامات الحزن الحقيقية على وجه الفتاة هي وزوجها.. كما حضر إلينا أبواها وجداها من أجل التعزية.

ها هي قد لحقت بصديقتها الآن.. كلتاهما قتلتا في عمر الثامنة والعشرين.. كلتاهما كانتا لامعتين وصاحبات موهبة حقيقية.. وكلتاهما خلفا وراءهما صغيرين لا يدركان من أمرهما شيئا.. وكلتاهما قتلتا بيدي أحبابهما في هذه الدنيا!

الآن علمت لم تواصل معي (يوسف)، لقد كانت (ماهيتاب) رحمها الله ممن أقاموا حملة للبحث مع الشرطة عن القاتل وقت إصابة (سُلاف) ومقتل (رامي). وبعد حدوث الوفاة أصابتها حالة نفسية شديدة وأوقفت برنامجها التلفزيوني مؤقتا ..وها هو سيتوقف للأبد بعد مقتلها.

هاتفت (يوسف) فور قراءتي للأوراق وعاتبته على عدم إخباري بشخص القتيلة منذ البداية..وبرر لي الأمر بأنه يُقدر ما أمر به، ولكنه لم يستطع إخفاء الأمر عني أكثر من ذلك .. خاصة وأن القضية صارت حديث الناس في البلاد هذه الأيام. على إثر ذلك قرر إعطائي الأوراق وإن أردت فيمكنني مساعدتهم في مجرى التحقيقات.

- أنا لن أساعد فقط.. بل سأكون جزءا من دائرة التحقيقات. غدا سأذهب لتقديم واجب العزاء للسيد (رشيد كاظم) وولده في مصابهم الأليم. لقد ساندتنا هذه الأسرة كثيرا..وكانت المرحومة من خيرة أصدقاء ابنة أخي، سأعرض على العائلة تطوعي بالدفاع عنهم.. ومن هنا سأعلم إن كانت جدتها القاتلة حقا أم لا.

هنا سكت يوسف قليلا ثم علق قائلا:

- ماذا تقصد يا (أحمد)؟ أيمكن أن...
- نعم يا (يوسف) لا أظن أبدا أن الجدة هي القاتلة.. لن تهددها علنا ثم تذهب بعدها وتعطيها العصير المسموم أمام أعين الجميع. هناك طرف ثالث في القضية..وسأعلم ماهيته قريبا.

أنهينا المكالمة، وأبعدت أوراق قضية (ماهيتاب) ـ رحمها الله ـ مقررا الإبحار في عالم (سُلاف) السري بعدها... للوهلة الأولى يبدو من ظاهره أنه مجرد دفتر أسود أنيق، يخبر عن شخصية صاحبته المميزة، ولكن الفحوى كانت أسوأ من كل سوء قد يخطر ببال بشر...

فحوى ستجعلني أرتعب كلما فكرت فيما تبقى من عمري، كيف احتملت ابنة أخي كل هذه النيران وحدها؟!

***

(دفتر سُلاف)

اسمي (سُلاف).. هكذا أسماني أبي، أو بمعنى أصح هكذا أسمتني حبيبته القديمة! المرأة التي هام بها أبي للحد الذي انطفأت لفقدها روحه، واستحال بعدها لرجل فارغ من أية عواطف يمكنه منحها للآخرين.... باستثنائي أنا وابنتي (كرمة).

أنا (سُلاف جمال الذهبي) ابنة أبيها، وحاملة مصيره وسره الأعظم الذي لا يعلمه هو ذاته! أنا (سُلاف) ابنة الماضي الهاربة من نيران الحاضر، أنا حبيبة أبي الثانية، ووريثة آلامه وشريكته في مصابه، وأنا وحدي من تملك السر، السر الذي سيقتلني يومًا لا محالة!!..لكني أدعو الله ألا يطال زوجي وابنتي..

لقد آمنتُ دوما أن الكتابة وسيلة آمنة للتخفف من الألم، ولكن في حالتي فالألم لا مهرب منه ولا مفر! كيف أشرح لمن حولي حقيقة ما أهمني، وكيف أجسرُ على إخبار أبي وهو يرى الحزن في عيني يتنامى يومًا بعد يوم ولا يدري كيف يداويني؟ وكيف له هذا وهو لا يعلم سر وجيعتي؟!

وكيف لي أن أطلعه على السر الذي أعلم أنه قاتله لا محالة؟!

دائرة من التساؤلات لا أجد مهربًا منها سوى بين وريقات هذا الدفتر، الدفتر الذي سيكون شريكي في ارتكاب جريمتي.. جريمة الصمت! الصمت التي أعلم كيف دفعت أسرتي ثمنا باهظا جراء اقترافه، ولكني غير قادرة على البوح.

وما بين الصمت والبوح أصير أنا وحدي قتيلة الكلمة، الكلمة التي سواء عليَّ نطقتها أم لم أنطقها، أعلم أنني مقتولةٌ بها. وإن كان لا مفر من هكذا مصير، فلسوف أذهب له –وحدي– راضية به، ولكني لن أسمح بذهاب الآخرين معي.

أبي العزيز، أدعو الله أن لا تقرأ هذا الدفتر يوما، فها أنا أجاهد في إخفائه عن عيون من حولي.. ولكن إن حدث وعثُرت به في ليلة مظلمة فلتعلم أنني لم أحب إنسانا بقدر محبتي لك في هذه الدنيا.

حتى ابنتي لم تتفوق محبتها على محبتك، لم أستطع أن أكون أما طبيعية تحب أبناءها أكثر من كل ما عداهم، ولكني استطعت وضعها معك في مكانة متقاربة فلا يبغي حب أحدكما على مكانة الآخر في قلبي وروحي.

كل ما أريده الآن أن أتخفف من ثقل ما ينوء بحمله قلبي على الورق، علّي أستريح قليلا.

وأخيرا لا أرجو منك أكثر من الغفران.. لي ولكل من ستعلم حقيقتهم إذا ما قرأت هذا يوما. فلتغفر لي ولهم يا أبي، ففي الغفران ستجد راحة نفسك.. أدعو الله أن تجدها حقًّا.

إمضاء:
سُلاف جمال الذهبي.

(دفتر سُلاف)

الحقيقة الأولى

بينما كنت أنا وحدي

أحارب الأشباح المختبئين

بين ظلال العتمة

رأيت أحبابي

يغلقون أمامي منافذ الضوء.

الزمان: ٢١ *أغسطس* ٢٠١٩.

المكان: *منزل عائلة الذهبي.. مدينة القاهرة.*

اليوم -الذي أروي أحداثه الآن- هو يوم ميلادي الرابع والعشرون ويوم ميلاد أبي السابع والأربعون.. ويوم زفافي أيضا! هذا أسعد أيام حياتي وأتعسها!!.

هنا تجتمع العائلة كلها من أجلي في يوم زفافي المنشود والذي اخترته كي يوافق يوم ميلادي وميلاد أبي، أبي الذي لم أحب أحدا مثله، ولا أعتقد أنني سأفعل. حتى زوجي يخبرني دائما أنه يحسد أبي عليّ، وأنه يتمنى لو منحه القدرالفرصة لتكون علاقته بابنته مثل علاقتي بأبي.

ولكن... زوجي لا يعلم ما أدفعه أنا من أثمان باهظة مقابل هذه المحبة، ربما لو كان أبي رجلا عاديا لا تربطني به كل هذه العواطف الجياشة لما شعرت تجاهه كما أشعر الآن.

لو أنه لم يغدق عليّ من فيض محبته ورعايته واهتمامه، ما كنت سأشعر بقلبي مثقلٌ بالآلام.. وروحي غارقة في الإثم كما أنا الآن..إثم المعرفة والصمت! لا أعلم كيف أشرح الأمر وأنا من تتفنن في نسج القصص وصوغها!! ربما الألم هو ما تتضاءل أمامه كل موهبةٍ ظننتها في نفسي قبلًا!

أنا طبيبة عيون، وكاتبة، تحاول صوغ الحكايات.. ولا تعلم أن حياتها هي أغرب الحكايات وأكثرها تعقيدا. وُلدت في الحادي والعشرين من أغسطس لعام ١٩٩٥م.. في يوم ميلاد أبي الثالث والعشرين.. وأعطيت لحياته –بمقدمي– لونًا وطعمًا، هذا ما داوم على إخباري به طيلة عمري.

أخبرني أبي أنه أسماني (سُلاف) لأنه يراه اسما جميلا، وأخبرتني جدتي خلسة بعد خمسة وعشرين عاما أنه أسماني (سُلاف) لأجل خاطر حبيبته القديمة.. وعلى كل حال وأيا كان السبب فقد صرت (سُلاف) وانتهى الأمر.

أريد الآن أن أتكلم عن بداية نشأتي.. أحلى أوقات عمري كله، طفولتي في كنف أبي وأمي وجدي وجدتي ورفيق دربي الغالي عمي (أحمد)... الرجل الذي حاولت إقناع أقراننا مرارا أنه عمي وليس أخي!...ولكنها كانت محاولات فاشلة على كل حال، بالضبط مثل محاولاته هو لإقناع الناس بأن (جمال الذهبي) أخوه وليس أباه!

ورغم فشل تلك المحاولات كنتُ سعيدة بأخوة (أحمد الذهبي) أما هو فلم يسعد يوما بكونه ابنا لـ (جمال الذهبي)، الرجل الذي سرق منه ظل أبيه كما اعتاد أن يصفه مؤخرا..آه لو يعلم كم تُدمي كلماته قلبي!

وألف آه على جبني وعدم قدرتي على مواجهته، لو أنني أخبرته بالحقيقة ربما لكان أشفق على أخيه أكثر. أخوه الذي يراه شيطانا، بينما الحقيقة هي أنه ضحية والديه لا أكثر ولا أقل..

خلال سنوات نشأتي علمني أبي كيف يمكن للرجل أن يكون والدا حقيقيا كما تكون الأبوة الحقة، وعلمتني أمي كيف يمكن للمرأة أن تصير أما مثالية. فالبيت الكبير الذي نشأت فيه ويطلق عليه الآخرون قصرا، اجتمعت فيه كل ميزات الأسرة السعيدة.. أب وأم، وجد وجدة، وعم قريب من عمري اتخذته أخًا!.

حياةٌ هنيئة رخيَّة، ولكن لأن الحلو لا يكتمل أبدًا –كما يقولون– كان على حياتي أن تحتمل قسطً وفيرًا من المرارة والعناء! والآن.. وعلى هذه الأوراق أراني لا أسطر رواية من محض الخيال –كما قلت– ولكني أدون حقيقة..وأي حقيقة!!

لذلك أعتذر مبدئيا لكل من سيقرأ هذه الوريقات لأنها ليست أكثر من بعثرة أحرف.. وها أنا أعتذرعنها مسبقا، لأنني أعتقد أن هناك من سيقرأها في يومٍ من الأيام! قلبي يحدثني بهذا أنا أعلم.. فقط، أدعو الله ألا يكون أبي هو القارئ!

والآن سأعمد إلى سرد ما يؤرقني تفصيلا دون مواربة أو تعديل....

كنت أعتقد فيما مضى من عمري، وحتى حان موعد زفافي أن صلتي بأفراد أسرتي هي كالتالي:

أنا ابنة (جمال الذهبي) و (غادة فاضل)

جدي هو (يوسف الذهبي) وجدتي هي (نادية أشرف)

عمي هو (أحمد الذهبي)

أخو جدي وعم والدي هو (عادل الذهبي)

ابن عم أبي وأخيه في الرضاعة هو (سليم الذهبي)

ابنة خالتي وفي ذات الوقت ابنة عمي هي (جميلة الذهبي)

حسنا هذا ما كنت أظنه حتى لحظة زفافي المشئومة.. لا تتعجب يا من تقرأ كلماتي ولا تقلق أبدا.. فالأمر أبسط مما تتخيل.. لم أتعرض لاختطاف كما يمكن للبعض أن يتصور، أنا ابنة أبي وأمي الحقيقية. المشكلة فقط أن والدي ليس ابن أبيه! لأنه وبكل بساطة ابن السيد (عادل الذهبي) أخو السيد (يوسف الذهبي) وعلى هذا أكون أنا حفيدة السيد (عادل) .. ابنة (جمال) الذي أنجبه من علاقة محرمة مع زوجة أخيه!!

نعم! هذه هي حقيقتي المُرة.. أبي ليس ابنا حقيقيا للرجل الذي ينتسب إليه ويظنه أباه، بل هو ابن للرجل الذي ظن طيلة عمره أنه عدوه.

أبي هو ابن عدوه، وأنا حفيدته، حفيدة عدو والدي اللدود. أنا ومع كل أسف أكون (سُلاف جمال عادل حسين الذهبي).

في الحقيقة فقط، أما في الأوراق الرسمية، فقد نُسِبتُ وأبي -زورا وبهتانا- لرجل طيب لا ذنب له ولا جريرة، سوى أنه أخ لخائن وزوج لشيطانة! أدخَلا عليه ما ليس منه، اغتالوا شرفه بدمٍ بارد دون أن يطرف لهما جفن!!

والآن ماذا على أن أفعل؟!

***

الزمان: يونيو ٢٠٢٣
المكان: بيت عائلة الذهبي .. مدينة القاهرة.

أريد أن أموت! لماذا لا أموت.؟!! لماذا يموت أحبتي وأبقى أنا وحدي؟! لماذا أعلم ما لا يجب أن أعلمه؟ لماذا أُخدع في من بقي على قيد الحياة منهم؟!

قائمة طويلة من الأسئلة ولا جواب واحد لدي. أمي في الغرفة المجاورة لي ترقد إلى جانب أبي، الرجل المخدوع لأكثر من خمسين عاما في زوجته، الرجل الذي يقاسي ويلات فقد ولد لا ينتمي إليه!!

ولد ليس بولده، وليس من صلبه، ولد أتى من خيانة، خيانة الزوجة والأخ!

يا الله يا أبي.. كيف هنت لهذه الدرجة؟!

ألقي بالدفتر عرض الحائط.. أبكي وأرتجف غير شاعر بما حولي.

أتذكر لقائي الأخير مع عمي.. أتذكر كلماته عن حبه لـ (جمال) رغم كل شيء. أتذكر حسرته، مرضه، ندمه، قلبي يحترق على نفسي وعلى (سُلاف) التي عاشت أواخر أيامها في خوف وقلق لا تعلم كيف تواجه حقيقتها وحقيقة أبيها. أتذكر أمي التي تتعجب من عدم زيارة (جمال) لها

في أحلامه.. وكيف يأتيكِ بعد كل ما تسببت له فيه؟! كيف بعد أن صارت الحقيقة واضحة جلية أمامه، أتظنين حقا أنه لم يعلم؟!

ولكن مهلًا، أيمكن أن تكون (سُلاف) قد فهمت الأمر على نحوٍ خاطيء؟ أيمكن أن يكون هناك احتمال ضئيل لبراءتهما؟ أيمكن أن يكون (جمال) شقيقي من أبي وأمي معًا؟

يا ربي..إلى أين المفر ومن أين السبيل...؟

ليس أمامي سوى أن أكمل قراءة هذا الدفتر وبعدها سأواجه أمي!

ولكن مهلا، أنا لن أفعل وألقي بأبي –إذا هو علم بالحقيقة الصادمة– إلى موت محقق! إن صح الأمر فلسوف تصرعه هذه المعرفة لا محالة.

ودون كثيرمن التفكير، رأيتني –وأنا تأكلني الظنون– أفكر بالدفتر... وما بين كل خطوة وأخرى أخطوها بقدمي صوبه، أفكر بأن مصيري معلق بما ستقرأه عيناي الآن...والأسوأ أن قلبي حدثني بأن هذه المذكرات مرتبطة بطريقة ما بمقتل (ماهيتاب كاظم)!

(دفترسُلاف)

الحقيقة الثانية

أنت يا من تبحث عن الخلاص..

كيف تهديني ظلامك

وترحل؟

الزمان: ٢١ أغسطس ٢٠١٩
المكان: منزل عائلة الذهبي.. مدينة القاهرة.

اليوم هو يوم زفافي المنتظر... ها أنا أضع اللمسات الأخيرة.. أتجمل بزينة وجه هادئة..رتوشًا تكاد لا تُرى..فأنا لا أحب الصخب. فستاني الأبيض الأنيق، صممته ابنة عمي الغالية (جميلة) وأهدته لي.. كل شيء هادئ كما أُحب..حتى الزيجة ستتم بعد صلاة العصر في حديقة المنزل.. أهلي بجانبي، (ماهيتاب) و(جميلة) برفقتي....وأمي وجدتي أمامي يترقرق الدمع في عينيهما فرحًا بي!

يدخل أبي باسم الثغر -مصطحبًا جدي وعمي- إلى غرفتي.. يبتسم عمي وملامحه تشي بسعادة غامرة، ويجهش جدي بالبكاء من شدة الفرح، وأبي يبتسم في هدوء دونما تعليق! ينبهر ثلاثتهم لرؤيتهم فستان الزفاف، فقد كانت ابنة عمي مصممة أزياء ذات ذوقٍ رفيع، هذا إلى جانب دراستها للصيدلة. أدركت لاحقا أن العلوم الطبية لم تكن كافيا لكلتينا! فخلف رداء دراستنا الأكاديمية اختبئت مواهبنا الحقيقية.

يخرج الجميع من الغرفة ويبقى أبي أمامي ثابتا كما اعتدت أن أراه دائما! أعلم سعادته لأجلي وأعلم أيضا كيف أن قلبه يكاد يتفطر حزنا لفراقي، يخبرني أنني أجمل الفتيات في هذه الدنيا.. أدخل أنا في وصلة بكاء نيابة

عني وعنه، يسرع في احتضاني في حنان والديٍّ غامر، وهو يخبرني أنه لا محل للدموع اليوم.

اليوم تتكلل فرحة عمره بالنجاح، اليوم هو أسعد رجال الأرض، اليوم يرى طفلته وقد صارت عروسا جميلة تتطلع إليها الأبصار... وقبل أن تطأ قدماي باب الحجرة يخبرني مازحا أن هناك عربة تنتظر أمام الباب الخلفي للقصر لتهرب بي إذا ما قلبت أمري وأردت تغيير رأيي في آخر لحظة ورأيت عدم إتمام الزيجة.

أضحك بطفولية، ويضحك هو أيضًا وحينها أرى ترقرق الدمع في عينيه، يحتضنني ثانية وهو يخبرني أنني أكبر إنجازات عمره.التي يتضاءل أمامها أي إنجاز آخر.. فلا لماله أو مكانته أو عمله أدنى قيمة إن لم أكن أنا معه. يطول احتضان أبي لي محاولا كفكفة دمعي.. أبكي لفراق أبي صديق نفسي، وداعمي الأول، ولأنه لا يشاركني البكاء ويتصنع الجَلد كعادته، أتبرع أنا بذرف الدموع لكلينا.

- (رامي) فتى طيب أنا أعلم هذا، ولكن إذا ما شعرتِ يوما بعدم قدرتك على الاستمرار معه فاعلمي أن أباكِ هنا.. وسيقف لجوارك دائما ومهما حدث.

ينهي أبي كلماته، يربت بيديه الطيبتين على كتفي، ويلتقط كفي لنخرج سويا للحضور المنتظرين لإتمام مراسم الحفل الموعود.. يعقد أبي القران

مع (رامي) ويشهد جدي وأخوه على العقد.. وقتها لم أكن أعلم من الجد ومن أخوه على وجه اليقين!

أرى نظرات البهجة والفرحة في عيون من حولي عمي (سليم)، ابنة عمي (جميلة)، (ماهيتاب) صديقة العمر، جدتي (نادية)، وأمي (غادة).. الجميع كانوا فرحين والسعادة تملأ وجوههم..باستثناء رجل واحد لم أطمئن لوجوده يوما!!

إنه (سالم) صديق أبي وعمي منذ الطفولة، صحيح أنه كان يتبسم في وجهي طيلة الوقت، ولكنها ابتسامات باهتة مُدَّعاة! لطالما قادني حدسي وتمييزي لقراءة دواخل الناس، وهذا الرجل لم ترتح نفسي إليه قط! بفطرتي كنت على يقين من أنه يضمر لأبي نقيض ما يبديه له!

أذكر أنني قد حذرته ذات مرة من صديقه هذا، فما كان منه سوى أن ضحك وأخبرني أن (سالم) رجل طيب ولكن الحياة قد قست عليه كثيرا، فلم يستطع أن يتجاوز ماضيه المؤلم ويؤسس أسرة تنسيه فقده القديم! لم أقتنع بكلمات أبي وقتها، ولكن من يجرؤ على التشكيك فيما يقوله (جمال الذهبي)! ...

بعد عقد القران بدأ الحفل.. وجدت (عادل الذهبي) يقترب مني وهو يحمل في يديه صندوقا خشبيا أنيقًا، حينما فتحه رأيت بداخله كِردانا ذهبيا لم تقع عيناي على مثيله قبلًا!! أخبرني أنه لا يوجد منه سوى نسختين فقط

ورثهما عن والدته رحمها الله أهدى أحدهما لابنة عمي (جميلة) والثانية ادخرها من أجلي، وها هو قد آن الآوان كي يمنحه لي وأنه لا يرى شيئا أكثر قيمة من هذا العقد الفريد كي يُهديني إياه.

ثم طلب مني السماح له في أن يضعه في عنقي.. رحبت بالأمر طبعا كما أنني أبديت فرحا وامتنانا عظيمين بهديته وشكرته عليها، إلا أن الدمع الذي فاضت به عيناه كان غيرمبرر لي!!

نعم هو رجل طيب لم أرَ منه إلا الحنو والعطف، لكني لا أجد مبررا لحزنه الشديد كلما نظر في وجهي..هل يمكن أن يكون شعوره بالذنب لظلمه لأبي؟!..ربما! هذا ما اعتقدته بسذاجتي وقتها.

بدأ الحفل فعليا وقد أوشكت الشمس على المغيب، أدعو الجميع لضرورة التقاط صورة لأن انعكاس الشمس سيضيف على الصورسحرًا خاصًا... نصطف في صورة جماعية، أتخبط في خطاي (قاتل الله الكعب العالي ومن ابتدعوه) لأصطدم بعدها بصديقتي (ماهيتاب) دون قصد، فأتعثر وأسقط أرضا، ولا أنتبه لسقوط الكِردان الذي أهدانيه للتو جدي (عادل) على الأرض.. إلا أنني أسمع صوت طرقعة خفيفة تحت قدميَّ، لأجدني وقد أسقطت العقد الذهبي المميز بل وللحظ العاثرقد تسببت في كسره أيضا! لا يلحظ الأمر سوى (ماهيتاب) و(رامي)، أطلب منهما أن يجاملا الحضور حتى أودع العقد خزانتي وأصلح من هندامي. أصعد لغرفتي، أدلف إلى الحمام، يرعبني حجم الضرر الجسيم الذي لحق

بالكردان الذهبي المميز الذي لم تدم هناءتي به كثيرا، أضعه في حزن داخل صندوقه الخشبي وأبدأ في إصلاح هيئتي، وما هي إلا ثوان حتى سمعت همهمات في غرفتي، وحينما أرهفت سمعي لأستبين هوية المتحدثين داخل الغرفة وجدت ما لم أتوقعه...

كانت جدتي (نادية)! ظننت لأول وهلة أنها صعدت لتتفقد حالي، ولكن قبل أن أهم بالخروج سمعت صوتا رجوليا آخر معها، سرعان ما تبينت أنه صوت (عادل الذهبي) ليدور بينهما فيما بعد الحوار الذي سيغير حياتي للأبد....

نادية:

- هل جُننت يا (عادل) أم أصابك الخرف على كبر؟ ما هذا الذي أراك تفعله؟

عادل بصوت واهن:

- وماذا فعلت أنا من أجل جرجرتي لغرفة (سُلاف) على هذا النحو؟!

نادية:

- أحقا لا تعلم ماذا فعلت أيها الخَرِف؟ّ لماذا وقفت تبكي وأنت تتحدث ل(سُلاف) ..هل تظنها قروية ساذجة؟! هذه طبيبة وكاتبة أيها الأحمق.. كل مرة وقعت عيناي عليك تحادثها، رأيتك دامع العينين يكسو ملامحك الشجن .. ألا تخاف أن تشعر الفتاة بشيء؟!

عادل:

- وماذا عن مشاعري أنا أيتها اللعينة؟ ماذا عن مشاعري وأنا أرى ابني وحفيدتي أمامي ولا أستطيع أن أقول لهما الحقيقة؟ ما شعوري وولدي يظنني عدوه؟ وما شعوري وابنته –حفيدتي– تظنني أخًا لجدها بينما أنا جدها الفعلي؟ لعنكِ الله أفسدت علي ديني ودنياي وتسببت في إتياني ما حرمه الله! والآن لا أحد غيري يدفع الثمن! كل ما أتمناه قبل أن ألقى ربي، أن أحتضن (جمال) وأخبره أنه ولدي وأن (سُلاف) حفيدتي، ليتني أقدر على مصارحته وطلب الغفران منه، ولكني أجبَن من أن أفعل بكل أسف! سأموت محترقا بنيران الحقيقة والذنب..ولن يعلم ولدي أنني أبوه الحقيقي الذي أحبه أكثر من أي شيء وكل شيء.

التوقف عن الحياة هو المعنى الحقيقي لشعوري حينها، لم أبكِ ، لم أصرخ، ولم أضع إحدى يديَّ فوق فمي لمنع صوتي من الخروج كما نرى في الأفلام والمسلسلات .. كل ما فعلته أنني تسمرت في مكاني واجمة!!!

الدموع تحجَّرت هي أيضا في مقلتيَّ، حتى التنفس توقفت عنه.. لا أعلم كيف لم أمت بأزمة قلبية وإن كانت ستصيبني بعدها بأيام، لكن لحظتها لم أعلم كيف استمر قلبي في الخفقان دون توقف؟! والمصيبة أن جدتي لم تشعر بشيء حينما سمعت كلمات جدي (عادل) بل ضحكت!

وليتها صمتت خجلًا أو استشعرت عظم ذنبها وشناعة ما ذكرها به شريكها في الذنب والإثم، بل زادت طينها بلةً بحديثها الوقح ردًّا على ما قاله..

نادية ضاحكة:

- حقا يا حاج (عادل).. هل ظننت أن الحج والعمرة قد طهراك حقا من آثامك القديمة؟ أصبحت أنا الآن الخائنة اللعينة، وماذا عنك أنت، ها؟ ماذا عن الرجل الذي أخبرني أنه يلعن اليوم الذي تزوج فيه ابنة عمه المريضة التي لا تصلح لتكون زوجة أو أما؟ ماذا عن الرجل الذي أخبرني أن أخاه لا يدرك قيمة النعمة التي بين يديه؟ ماذا عن الرجل الذي راودني عن نفسي كثيرا حتى نال مبتغاه؟ الآن صرت أنا الشيطانة اللعينة وأنت الطاهر البريء؟!

هنا انفجر عادل غاضبا وهو يردد:

- نعم شيطانة! أنا لا أبريء نفسي فقد زلت قدماي في وحل الإثم وخُنت أخي..شقيقي، ولكني لم أكن أعلم مقصدك الدنيء من

وراء علاقتنا، لم أكن أعلم رغبتك الهيسترية في الإنجاب لتسيطري على مقاليد البيت كله. أنتِ لم تحبيني يوما لا أنا ولا (يوسف) ولا حتى (جمال) و(أحمد) أنتِ تحبين ذاتك والمال فقط!

نعم أنا مخطيء وملعون وآثم أنتظر عقابي من الله وأدعوه أن يصيبني وحدي. ولكن أنتِ شيطانة..أردتِ المال والجاه والنفوذ، والحل كان بسيطا من وجهة نظرك ليس عليكِ سوى أن تتزوجي من أغنى رجل يصادفك، وقد تحقق مناكِ بمقابلة (يوسف الذهبي) في الجامعة. وبعد أن أدركتِ حقيقة وحدته وخلافه الدائم مع والدنا وموت أمي الذي صنع في نفسه شرخا عميقا منذ الطفولة، لم يكن أمامكِ حينها سوى أن تحيكي خطة محكمة للإيقاع به، أوهمته أنك ستتنازلين وتذهبين معه إلى المنيا وأنتِ ابنة العاصمة التي لا تطيق حياة الصعيد الصعبة... يا للمسكينة، ستتنازلين وتسكنين معنا في قصر منيف! أتعلمين أن أبي كان يحتقرك ولم يكن راضيا عن تلك الزيجة؟ كان يعلم بذكاء التاجر وفطرة الأب أنك محتالة، تسعين للمال والغنى بأي ثمن، ولكنه وافق فقط - كى لا يخسر ولده الصغير. وما إن تحقق مُناكِ وطالت بكما السنون دون ذرية وتيقنتِ من أن العيب من (يوسف)، نسجتِ شباكك حولي، خاصة وأن زوجتي - رحمها الله- حملت مرة قبل (سليم) وأجهضت لمرضها الشديد، ولحظتها تأكد عندك أنني صيدك الثمين!. الاختيار الذي سيحقق لكِ فرصة إنجاب الفتى المنشود، الفتى الذي صار لعنة ووبالا علينا

جميعا..الفتى الذي تحول لشيطان علي يديك. يا الله لم أكتشف خديعتك سوى بعد إعلان حملك أثناء علاقتنا.. شهران فقط كانا كفيلين بتدمير حياتي للأبد، أكلت النيران –وقتها- قلبي وقد استفقت وأدركت فداحة فعلتي للدرجة التي جعلتني أفكر بالذهاب إلى (يوسف) والاعتراف بين يديه، وليقتلني إن شاء ولكني لن أصمت!! أتعلمين هذا لقد كنت ذاهبا إليه حتى أخبرتني زوجتي بنبأ حملها هي الأخرى! ووقتها خشيت على ولديَّ، وصمت حتى أكل الإثم روحي..بينما أنتِ سعيدة بإنجاب فتى أحلامك كنت أموت أنا في كل يوم مائة مرة، وابتليتُ بموت زوجتي العفيفة الطيبة، ابنة عمي التي لم تكن تستحق مني ما فعلته بها، وتركت لي (سليم) وأمام عيني كان يكبر نبتي الأسود ويتطاول في البنيان..واليوم تتزوج ابنته –حفيدتي- وهو مازال يراني عدوه! بسببك، كله بسببك أنت.

نادية:

- حقا وهل بسببي أنا ارتميت بين أحضان (كوثر القاضي) حتى صار لك منها ابنة غير شرعية هي الأخرى؟!

عادل في ذهول:

- ماذا..ماذا تقولين؟!

نادية:

- أقول الحقيقة يا حاج (عادل)..إن أردت فلتذهب وتسألها بنفسك، وهناك ستجدها وتتيقن مما أقول. والآن، فلتنزع عنك رداء الطهر الذي من كثرة ما ادعيته –زورًا– قد صدقته في نفسك، واهبط معي إلى أرض الواقع يا هذا. اليوم فرح (سُلاف) ابنة نبتك الأسود –كما تدعي– فإياك ثم إياك أن تفسده! هيا قبل أن يفطن لغيابنا أحد يا أخا زوجي العزيز!

لم أدرِ ما الذى كان علي فعله جراء ما تنامى لسمعي؟! لم أحص الزمن الذي أمضيته –واجمةً– أحدق في الصندوق بين يدي دون حراك! الآن صرت أفهم لماذا وهبني إياه.

حاولت بعد خروجهما أن ألُمَّ شعثي وأضبط شتات فكري، ثم رحت أخفي الصندوق في خزانة ملابسي كمن يطمث آثار جريمة نكراء. بعد هذا عمدت إلى التسلل لحديقة القصر قبلهما من الباب الخلفي، حتى لا يرياني ويفطنا إلى أني قد سمعتهما! وما إن وصلت إلى (رامي) حتى أوصيته ألا يخبرأحدا بأمر ذهابي لغرفتي. انصاع لكلامي دون أن يستفهم عن السبب رغم قلقه البادي، بينما تماسكت أنا مدعية الثبات. الثبات الذي أتى بعد علمي للحقيقة، الثبات الذي سأدفع ثمن ادعائه باهظًا، بعد أقل من أسبوع.

حينما تصيبني أزمة قلبية حادة كادت أن تودي بحياتي، لأنني علمتُ ما لم يكن لي أن أعلمه.. وليتني لم أعلم!

الزمان: صباح الأول من يونيو ٢٠٢٣
المكان: منزل عائلة الذهبي.. مدينة القاهرة

لم أستطع القراءة أكثر.. توقفت عند هذا الحد وأنا ذاهلٌ في مكاني!

ما فائدة الاسترسال في القراءة؟!! وما الذي سأعلمه أكثر؟!

عمي وأمي خائنان!...هكذا ببساطة! و(جمال) صار بين ليلة وضحاها..أخي من أمي، دون علم أي منا بتلك الحقيقة.

الآن أتذكر الرعب الذي أصابنا جميعا بعد أن اتصل بنا (رامي) يخبرنا بإصابة (سُلاف) بأزمة قلبية مفاجئة، أتذكر الحسرة تكسو ملامح وجهها، والموت الذي كانت تشتهي الذهاب إليه، وأدرك الآن دوافعها ومبرراتها جيدا، لقد أفسدت عليها أمي زيجتها منذ بدايتها.. كما أفسدت عليَّ حياتي منذ الآن وحتى نهايتها.

ألا لعنة الله على الظالمين!

- انتظري يا (كرمة) يجب أن تطرقي الباب أولا.

يأخذني صوت (فيروز) من دوامة أحزاني، وأرى أمامي (كرمة) تفتح الباب وتقبل علي محتضنة إياي.. هذه الفتاة قادرة على إذابة أحزاني كما لو أنها لم تكن يوما.

- أعتذر منك يا سيدي.. (كرمة) مازالت فتاة صغيرة لا تُقدر الأمور، عذرا لأنني لم أستطع اللحاق بها واستئذانك قبل دخول الغرفة.
- لا عليكِ يا آنسة (فيروز) .. (كرمة) ابنتي تدخل علي وقتما شاءت.

كانت عيناي متورمتين من طول بكائي ونحيبي البارحة.. ويبدو أنها لاحظت آثار الانهيارعلى وجهي منذ أول لحظة رأتني فيها..بدا هذا جليا في نبرة صوتها.

- هل أنت على ما يرام يا سيدي؟

يمكنني استدعاء الطبيب إن كنت تشعر بأي ألم.

- لا أنا على خير ما يرام.. من فضلك هلا طلبت من المساعدين إعداد الإفطار لي أنا و(كرمة)، واطلبي منهم إحضاره هنا.
- لقد صعدنا في الأساس بأمر من السيدة (نادية) كي نخبرك أن الإفطار جاهز بالأسفل.

كنت ألعن السيدة (نادية) في سري لحظتها! ولا أطيق رؤيتها ابتداءً، فماذا عن تناول الطعام معها؟! ولكن كيف أخبر هذه المسكينة بهذا الأمر، بل كيف أبرر لـ (كرمة) غضبي .. وإن لم تلحظه هي لصغر عقلها وسنها، فكيف أبرر لأبي الذي شهد البارحة صلحنا أثناء تناول العشاء؟

صبرني يا ربي، سأضطر للجلوس معها رغم النيران التي تتقد بقلبي. أومأت برأسي في تفهم لـ (فيروز) وطلبت من كرمة انتظاري بالأسفل مع جديها.. يا الله ها أنا أقول جديها..بينما أبي هو مجرد زوج والدة جدها!

ألا لعنة الله على الخائنين في كل حين.

هربت مجددا إلى الماء الساخن..ورغم سخونة الجو إلى أنني عشت عمري كله أختبئ من آلامي خلف شلال المياه الساخنة. لا أعلم لم تذكرت لحظة موت (جمال) وهو يخبرني أنه وعد والدتنا بحمايتي حتى ولو كلفه ذلك روحه، ربما تذكرت بسبب كلمة وعد. الكلمة التي حفظها (جمال) ولم ينسها طيلة ثلاثين عاما، بينما والدته على الصعيد الآخر خانته حتى قبل مجيئه.

أين أنت يا (جمال)؟! عد لي يا أخي وأخبرني كيف واجهت خيانة الأحباء واحتملت مكر الأعداء؟

وإن كنت أثق أنه رغم كل قوتك لم تكن لتتحمل صدمة كهذه.. ربما حينها كنت ستموت بأزمة قلبية مثل التي أصابت وحيدتك ونجت منها بأعجوبة!

في بهو البيت وجدت أبي الحبيب يُطعم (كرمة)، ذكرني هذا بما كان يفعله معي أنا و(جمال) و(سُلاف).. ما كان ليضع اللقمة في فيه، حتى يطعمنا منها أولا. أبي الوفي، الطيب، رقيق القلب، الذي خانه القريب قبل البعيد. آه وألف آه عليك يا أبي!

اقتربت منه قبلت يديه.. أطعمنى أنا الآخر كما اعتاد أن يفعل حتى أتت أمي وحاولت أن أبدو طبيعيا معها رغم نيران قلبي المتأججة. أكلت لقمتين ثم اتجهت مسرعا بحجة العمل.. وحمدت الله أن أبي لم يلحظ آثار انهيار الليلة الماضية علي وجهي وما هي إلا دقائق حتى اتجهت في طريقي للبيت المنشود.. قصر (رشيد كاظم).

***

الزمان: صباح الأول من يونيو ٢٠٢٣
المكان: قصر عائلة كاظم.. مدينة القاهرة.

- ما الذي يشعر به من يفقدون أبناءهم؟!

بالنسبة لي يمكنني أن أشرح للآخرين معنى فقد الأخ، العم، الصديق، ابن الأخ.. ولكن فقد الأبناء لا يمكنني..لأنني ببساطة لم أكن أبا في حينها. طبعا هذا إن استثنيت مشاعري تجاه (كرمة) -حفظها الله لي- ولكني أتكلم عن شعور الأب الفعلي، حسنا.. يمكنني الاعتراف بأنني عرفت وجوهًا أخرى للألم بعدما التقيت (رشيد كاظم) وولده (كمال كاظم).

بعد أن أعطيت اسمي لحارس القصر سمح لي بالدخول، وعلى أبوابه وجدت رجلا هزيلا في استقبالي، كان (رشيد كاظم) بنفسه.. وكانت صدمتي الكبرى حينما رأيته.. هل يمكن أن يكون هو نفس الرجل الذي جاء مع ابنه وحفيدته من أجل تعزيتي منذ أقل من أربعة أشهر، كيف يكون هذا؟!

لقد كبر الرجل أضعاف عمره..حتى أبي حينما فقدنا (سُلاف) و(جمال) لم يصل لتلك الحالة! رحمتك بعبادك الضعفاء يا إلهي.

- البقاء لله يا سيد (رشيد) خالص تعازيّ القلبية وتعازي أسرتي كلها في مصابكم الأليم.

لقد كانت السيدة (ماهيتاب) رحمها الله نعم الأخت والصديقة لابنة أخي. ربتَ الرجل على يدي وهو يردد:

- رحمة الله عليهم جميعا.
- آمين، أعتذر منك يا سيد (رشيد) لعدم مجيء والدي ووالدتي معي لتقديم واجب العزاء.. ولكنك تعلم ما هم فيه، فقد توفيت زوجة أخي في نفس يوم وفاة السيدة (ماهيتاب).

ردد الرجل وهو دامع العينين:

- أعلم يا ولدي، لقد سمعت بما حدث، إنه اختبار عظيم من الله لأسرتكم، وكذلك لأسرتنا..أرجو من الله أن يربط على قلوبنا جميعا.
- وكذلك أرجو أنا.. كما أرجو منك أن تقبل عرضي الآن.
- خيرا يا ولدي تفضل وقل ما شئت.
- أنا أعلم أن وفاة السيدة (ماهيتاب) لم تكن طبيعية، وأن السيدة (عائشة داود) متهمة بقتلها!! وحقيقة أن لا أصدق حدوث

ذلك. لا يمكن لزوجتك أن تكون القاتلة يا سيدي، لذلك أريدك أن تسمح لي بالتطوع للدفاع عنها.

هنا تنهد الرجل وهو يتكلم وقال:

- صدقني يا ولدي أنا حقا قدر لك حسن صنيعك، ولكن فلتتعلم حكمة من عجوز أوشك أن يغادرهذا العالم الفاني، لا تحكم على حدثٍ لم تكن من شهوده! أنت لا تعلم ما قاسته حفيدتي رحمها الله على يدي جدتها، لقد اكتشفت بعد مقتلها الكثير.. وبالمناسبة هي لم تعد زوجتي لقد ألقيت عليها يمين الطلاق قبل أن تقبض عليها الشرطة. لا سامحها االله.. لن تنطفيء نيران قلبي إلا بالقصاص العادل منها.
- ولكن يا سيدي أليس هناك أدنى أمل في براءتها؟ هذا ليس اتهاما عاديا إنك تتهم زوجتك بقتل حفيدتكما؟ كما أن واقعة القتل تمت باستخدام السم..وهذا يعني أن السيدة (عائشة) ستواجه حكمًا بإعدامها.
- ليت بشراك تصدق! وأراها مُعلقة أمامي، كما جعلتني أرى حفيدتي الوحيدة تحتضر أمام ناظريَّ. هذه المقيتة قتلت حفيدتنا يوم عيد ميلاد ابنها! ما ذنب ذلك الصغير يا دكتور(أحمد)؟ ما ذنبه أن تُقتل أمه أمامه، وبيد مَن؟ جدتها؟! اسمعني جيدا..أنا أقدر لك مجيئك وتعازيك لنا رغم المصائب المتكررة التي عايشتها

مؤخرا أعانك الله وصبر ذويك على فقدكم الجلل، ولكن إن أردت أن تصير معنا حقا، فلتكن محاميا عن (ماهيتاب) رحمها الله وليس عن تلك القاتلة اللعينة! سأتصل بمحاميّ الخاص اليوم ليضمك لهيئة الدفاع.

صمتُّ، لم أعلم ماذا أقول.. إلى أن ألهمني الله أن أسأل عن حال السيد (كمال كاظم) وزوجته.

- سيدي، عذرا لسؤالي، ولكن كيف حال ولدك الآن؟ إن مصابه مضاعف أعانه الله والدته اتُهمت بقتل ابنته، والأدلة كلها ضدها تقريبا.. أريد الاطمئنان عليه وعلى زوجته.
- حاله غير مطمئن يا ولدي إنه منعزل في غرفته بعد ما حدث، يرفض محادثة الجميع حتى أنا. ولكني أعذره، ما رآه لم يكن هينا! حتى زوجته تركت لنا البيت ورحلت لتقيم في بيت ابنتها بحجة رعاية حفيدها الصغير. ولكني أعلم أنها لن تعود، فقد وصل إلى مسامعي أنها تطلب الطلاق من ولدي. إنها محقة، صدقني هي محقة أيا ما كانت ردة فعلها.. هي ترى أن البلاء جاء من وراء زوجها ووالديه، وها قد رحلت ابنتها فلماذا ومن أجل من تبقى؟

سكت الرجل قليلا ثم أكمل..

- أتعلم قبل مجيئك بقليل كنت ذاهبا لزيارة حفيدتي، لم أعد أطيق الجلوس بعيدا عنها حتى أنني لم أتلق عزاءها حتى الآن.. سأتلقاه يوم إعدام تلك الخائنة.

لا أعلم لماذا تذكرت لحظة انقضاض (غادة) على (جمال) وهي تحمل السكين بين يديها بعد مراسم دفن (سُلاف)، كما تذكرت لحظة انقضاض أمي على أبي حينما لطم (جمال) على وجهه، يبدو أن تصرف والدة (ماهيتاب) قد قلب عليّ المواجع كما يقولون.

أعطيت الرجل رقم هاتفي، وأنهيت كلامي معه باتفاق نهائي على ضمي لهيئة الدفاع عن حفيدته، كما استأذنته في أخذ أرقام ابنه وزوجته وزوج حفيدته لمساعدتي في جمع كافة الأدلة التي ستساعدنا في إرجاع الحق إلى أصحابه.

وبعدما تم لي ما أردته وفي طريقي للخروج من القصر، وجدت أمامي الحارس يدس في يدي -في حركة سريعة- ورقة مطوية ولم أسمع منه سوى الآتي: **(اتصل بي عند التاسعة مساء .. الأمر هام!)**

وبعد أن ركبت السيارة وقرأت فحوى الورقة ظهر لي ما توقعته، رقم هاتف نقال وعلى ما يبدو أنه رقم الحارس نفسه. حسنا لن نخسر شيئا! هكذا حدثتني نفسي. اتصلت بـ (يوسف) أخبرته بكل شيء وكان سعيدا لأجل اهتمامي بالقضية.

كانت الساعة قد أوشكت على الثانية ظهرا وجال في خاطري وقتها أن أجلس خارج البيت أطول فترة ممكنة وفي ذات الوقت لا أريد الذهاب لمكتبي.. ففكرت أن أخرج بغرض النزهة مع (كرمة) وآخذ معنا (فيروز) كي تعتني بها.

ذهبت بالفعل إلى البيت ووجدت (فيروز) تلاعب (كرمة) داخل الحديقة.. كانت أول مرة أرى البسمة على وجه الفتاة منذ شهور. أخبرتهم بأمرالنزهة واستأذنت (فيروز) إن كان يلائمها المجئ، صحيح أنه عملها ولكنني كنت أحاول مراعاة ظروف الفتاة، فهي تدرس وتعمل في نفس الوقت. وعلى ما يبدو أنها لم تعتد مثل هذا التفهم من الناس .. فقد تأثرت كثيرا ساعة استئذاني منها، وبعد أن أبدت سعادتها بذلك ذهبت كي تُجهز نفسها هي والصغيرة معا. أما داخل البيت فصعدت لأجد والديَّ يقضيان فترة قيلولة الظهيرة.. لم أرد إزعاج أبي، وفرحت لأن أمي نائمة وهذا يعني أنني لن أطالع وجهها الآن، فقد كنت أخشى مواجهتها كما لو أنني أنا الخائن وليس العكس.

على كلٍ فقد تركت خبرا لمدبرة البيت حتى لا يقلقا على (كرمة).. ولم يفتني أن آخذ معي دفتر (سُلاف)، وربما كان هذا هوهدفي الأساسي في الخروج من المنزل، كي أتمكن من القراءة برويّة.. فقد علمت الجزء الأصعب بالفعل من تاريخ العائلة الأسود! ولن يؤذيني شيء بعد الآن!

في السيارة كانت الصغيرة في أوج سعادتها، بدا ثلاثتنا كما لو أننا أسرة صغيرة تستعد لنزهة جميلة في ظهيرة يوم مشمس. وصلنا إلى مكان ترفيهي يضم بعضا من الألعاب .. بدأنا في اللهو مع (كرمة) وكانت أسعد لحظات عمري كله وأنا أراها تضحك. لقد استطاعت تلك الصغيرة أن تُنسيني فقدي وخيبتي بضحكاتها البريئة، وكان يبدو من طريقة تعاملها مع (فيروز) أنها قد ألفت صحبتها، لذلك تركتهما قليلا تلهوان وتلعبان معا، وجلست أنا على أحد المقاعد على مقربة منهما أقرأ ما تبقى من ماضي العائلة المظلم...

(دفترسُلاف)

الحقيقة الثالثة

اليوم رفضني الموت

هذا ما همست به الشمس

وهي تشرق لي

من جديد

الزمان: ٢٨ *أغسطس* ٢٠١٩
المكان: *منزلي الجديد.. مدينة القاهرة*.

مضى أسبوع على زواجي من (رامي) حبيبي ورفيقي وشريك حياتي، ورغم سعادتي الغامرة بزيجتنا إلا أن مخالب الحقيقة مازالت تنهش جدران روحي. وأكثر ما كان يدمي قلبي هو رؤيتي (رامي) متوسلا لي لأخبره عما أصابني ، للحد الذي جعله يشك في ذاته إن كان قد أتى ما يُفسد فرحتي!! وصار يعتذر لي عما لم يفعله من الأساس!

.. وفي صباح اليوم السابع من زيجتنا شعرت بطعنات شديدة تمزق نياط قلبي، حتى أن قد وقع في نفسي أني أموت فعليا، وأخذت أردد الشهادتين وكل ما يمكنني ترديده من آيات القرآن..وكان الألم قد بلغ مني مبلغه حتى لم أقوَعلى طلب الاستغاثة ونداء (رامي). ولحسن حظي أنه كان يعد طعام الإفطار لكلينا ساعتها ثم ما لبث أن جاء ليوقظني ويرى بنفسه ما حل بي. وآخر ما أعيه في تلك اللحظة هي محاولته إنعاشي، بينما يتصل في ذات الوقت بالإسعاف في محاولة يائسة منه لإنقاذي.. وما هي إلا ثوان حتى فارقني الوعي وتوقفت عن الشعور بأي شيء!

وحينما استفقت وجدت أبويَّ يحيطان بي، كل منهما يقبل يدي ويبكي..وأمامي يقف (رامي) وحيدا يحمد الله على عودتي ثانية إليهم. أما عن جدي وجدتي فكان الخوف قد تمكن منهما كليا فلم ينطقا بحرف! وتكفلت عبراتهما بوصف حالهما الحزين..!

فيما بعد أخبرني الطبيب أنني عانيت من أزمة قلبية حادة، كنت أدرك بحسي الطبي أنها أزمة قلبية أثناء حدوثها إلا أن جزءا كبيرا داخلي صار يتمنى الموت والخلاص هربا مما سمعته وشهدته برغمي. لم أنتبه إلا والطبيب يحدث أبي أمامي أن مثل هذه الأزمات لا تحدث لمن هم في عمري إلا في حالتين ..إما أن أكون مريضة قلب ابتداءً وهذا غير صحيح، وإما أن أكون قد تعرضت لفرح مفاجئ أو حزن مفاجئ وفي الحالتين عليهم معرفة السبب حتى لا يتكرر ما جرى ثانية.

وقتها عاينت شك أبي في (رامي).. فسارعت لتبرئته لدى أهلي، بل أنني اجتمعت مع أبويَّ وجديَّ وعمي وأخبرتهم صراحة أن (رامي) رجل طيب ولا ذنب له فيما حدث لي وأن سبب مرضي هو قلقي الدائم من عدم استطاعتي التوفيق بين الدراسة والزواج، ورجوتهم ألا يظنوا به السوء لأنه لم يفعله.

صدقني الجميع عدا أبي، أو بمعنى أصح صدق الجزء الأول من كلامي بخصوص أن لا علاقة لزوجي بما حدث، ولكن هذا لا يعني تصديقه لفكرة قلقي بشأن الجمع بين الزواج والدراسة.

ولمَ أقلق أو أخاف وأنا الطالبة المتفوقة والكاتبة المشهورة....؟!

- (سُلاف) أنتِ لستِ ابنتي فقط، بل أنت تعويض عادل من الله لكل ما تجرعته من ظلم في هذه الدنيا، أخبري أباكِ واصدقيه القول أنا أعلم أنه لا دخل لـ (رامي).. ولكن قلبي لا يصدق تبريراتك. أنا لا أقدر على خسارتك يا بنيتي.. لا تحرقي قلبي عليكِ أرجوكِ!

انخرط أبي في البكاء والتقط يدي يقبلها، وأنا أمامه ممددة على سرير المرض، وهذا ليس من شيمه فـ (جمال الذهبي) رجل شديد ذو بأس، لا ينهار بسهولة.. ولم أكن قد رأيت في عينيه من قبل أكثر من لمعة العبرات المحتبسة بين جفونه، فما بال حالي حينما أرى دمعه ينساب على وجنتيه أنهارا!

- توقف يا أبي أرجوك لا تدمِ قلبي أكثر... لا أطيق رؤياك متألما، الموت أرحم عندي من رؤيتك هكذا.

كان كلانا يبكي الآخر، أنا أبكي حقيقتي وحقيقة أبي التي لا يعلمها سواي، وهو يبكي خوفه من فقد ابنته إثر مرض لا يعلم سببه. وأثناء كل هذا وجدته أمامي يفتح باب حجرتي بالمشفى في خوف وألم.. يحاول الاستناد على عصاه وهو يحرك جسده الهزيل الذي بدا وكأنه يطاوعه على مضض!

- لماذا جئت يا سيد (عادل).. هل تريد أن ترى موتي على وجه الحقيقة هذه المرة؟!

لم أنطقها بالطبع.. ولكن عيوني كانت خير ناطق عن حالي، وكان هو من الذكاء ليستطيع قراءة لغة العيون سريعا. رحب به أبي فور رؤيته وأجلسه مكانه.. وكان ممتنا لمجيئه رغم تردي حالته الصحية وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى أبي فيها ممتنا لعمه على شيء!

يا الله ..أمازلت بعد كل هذا أقول عمه؟! آه يا أبي لو تعلم أنه أبوك وليس عمك..آه وألف آه! يتركه أبي جالسا مكانه، ويذهب لاستقبال عمي (سليم) وابنته (جميلة) وأنفرد أنا بالجلوس مع جدي وحدنا، مستمرة في التحديق في الفراغ حتى تفاجئني كلماته المباشرة إليَّ...

- لقد كنتِ معنا في الغرفة يا (سُلاف).. أليس كذلك؟!

اتجهت عيناي ناحيته في لحظتها كما لو كنت أنا المدانة وليس هو، ليتابع بعدها حديثه...

- والآن أنتِ طريحة الفراش بسبب ما علمتِه يا فتاتي الصغيرة؟!
- كيف علمتَ بوجودي؟!

تساءلتْ في رعب..

- رأيتكِ وأنتِ تخرجين من الباب الخلفي للبيت.

صمت.. لم أعلم بما أجيبه، في مثل هذه الحالات يكون الصمت أبلغ إجابة. واصل حديثه قاطعا صمتنا....

- (سُلاف) أنا لا أستحق حفيدة مثلك، ولا أستحق ابنًا مثل (جمال)، حتى (سليم) الذي يظن الآخرون أن لا ولد لي غيره، أعلم يقينا أني لا أستحقه لا هو ولا ابنته (جميلة)، ولكن على الأقل أنا لم أتسبب لهم في أزمة قلبية كما فعلت بكِ! ليتها أصابتني أنا قبل أن آتي لزفافك. أنا لن أسمح لنفسي في التسبب بإيذائك أنتِ وأبيكِ مرة أخرى، تكفيني آثامي القديمة التي أجني ثمارها في كل يوم. يكفيني اكتشافك للحقيقة.. واكتشافي أنا أيضا لجانب آخر من ماضيّ الأسود! (سُلاف)، جدتك كانت محقة .. لي ابنة أخرى لم أكن متيقنا من وجودها حتى اليوم. لدي ولد وفتاة لا يعلمان أني أبوهما! خطئي أكبر من أن يمكن إصلاحه.. فات الأوان!

اتسعت حدقتي وأنا أنظر له في رعب وأردد في رهبة كادت تصيبني بالشلل...

- أتقصد أن..؟!
- نعم يا (سُلاف) .. أنا أب لفتاة لم تكن تعلم عني شيئا حتى البارحة!

غطيت وجهي بيدي وانتابني بكاء طويل، وكذلك هو، وفجأة وجدته ينهض لاحتضاني ..!

لقد كانت أول مرة يفعلها في عمره كله! وشعرت وقتها -رغم كل آثامه- أن هناك جزءًا من نفسي يحبه، بل ويحمل له بعضا من التعاطف!!

..لاحقا يدخل علينا أبي وهو مندهش مما يراه أمامه!

الزمان: الأول من يونيو ٢٠٢٣
المكان: إحدى النوادي الترفيهية ..مدينة القاهرة.

في الماضي كانوا ينعتوني بدودة القراءة لكثرة ما طالعت وقرأت، والآن أجدني لا قوة لي على قراءة دفتر مذكرات صغير! أتصنع البسمة في وجه (كرمة) و(فيروز)، عبثًا أحاول أن أجد ما يشغلني عن نفسي وما يعتمل داخلها..

جلسنا بعدما انتهت (كرمة) من لهوها لتتناول الغداء وبالي مشغول بالكوارث التي لا تتوقف. (سُلاف) كانت تعلم أن لها عمة غير شرعية، وكانت تعلم أن هذه العمة ابنة ل (كوثر القاضي) قاتلة حبيبة أبيها. لكنها لم تعلم اسم الفتاة، لو أنك أخبرتها يا عمي، لو أنك أعطيتها فرصة للنجاة، لقد تسببت في أن تقتل ابنتك أخاها وابنته!

آه لو كنتِ تعلمين يا (منال).. أكنتِ لتفعلينها ساعتها؟!

كثير من الأسئلة، ولا إجابة واحدة في رأسي!

يقطع حبل أفكاري رنين هاتفي النقال.. المتصل رجل يعرِّف نفسه باسم (مالك السويفي). وكانت كلماته مقتضبة..

- أريد مقابلة حضرتك الآن على وجه السرعة.

لم أكن لأرفض عرضا كهذا.. أخذت منه عنوان بيته، أنهيت نزهتي وأرجعت الفتاتين إلى البيت ثم اتجهت من فوري للعنوان المنشود.. ولم أنس أن أخبر (يوسف) بكافة التفاصيل، كان صوته يخبر عن مقدار سعادته الكبيرة بعودتي للعمل مرة أخرى.

الزمان: مساء الأول من يونيو ٢٠٢٣
المكان: منزل عائلة السويفي.. مدينة القاهرة.

وعلى الرغم من أن عائلة (السويفي) كانت لا تطاول في المكانة الاجتماعية عائلة (كاظم)، إلا أنها كانت عائلة ذات ثقل لا يستهان به في مجال الصناعة والتجارة، بينما كانت عائلة (كاظم) كيان لا يستهان به في مجال الإعلام..وقد اعتبرت في وقتها زيجة (ماهيتاب كاظم) و (مالك السويفي) نوعا من أنواع الصفقات التجارية المربحة....إلا أن (سُلاف) أكدت لي حينها أن ارتباط (ماهيتاب) و(مالك) كان لدواعٍ عاطفية بحتة، ليس للتجارة أية علاقة بها!

وما إن وطأت قدماي البيت حتى وجدت ما لم أكن أتوقعه...!! لم يكن (مالك السويفي) وحده في انتظاري، بل (كمال كاظم) وزوجته أيضا! والشيء الأكثر غرابة كان وجود (يوسف) معهم!

سيطر الصمت علي الموقف حتى قررت أنا قطعه..

- هلا شرح لي أحد ما يحدث الآن؟

(يوسف)، لقد حدثتك منذ دقائق.. لم تقل لي أنك ستسبقني إلى هنا؟

يوسف:

- ما يحدث أن توقعاتك وتوقعاتي أيضا صحيحة..(عائشة داود) لم تقتل حفيدتها! هناك من يحاول إلصاق التهمة بها، لذلك بعثت لك بالتقرير غير الرسمي، ولم أحاول التأثير عليك حتى تصل لاستنتاجاتك وحدك. واليوم تأكدت من تطابق نظريتي مع نظريتك، لقد استمع السيد (كمال كاظم) لحديثك مع والده.. يجب عليّ أن أحيي ذكائك بمحاولتك الانضمام لفريق الدفاع عن السيدة (ماهيتاب كاظم)، هكذا سنبقى الأمر طي الكتمان، سيتصور وقتها القاتل الحقيقي أنه أفلت بجريمته.. وأن القاتل بات معروفا للجميع. باختصار سنعمل على استدراج القاتل بإيهامه باقتناعنا -المزعوم- بأن السيدة (ماهيتاب كاظم) قُتلت بيد جدتها وانتهى الأمر. ولن نتوقف عند هذا وحسب، بل سنسرب ذلك لوسائل الإعلام، وأثناء ذلك سيفصح القاتل عن نفسه...

الزمان: الثالث من يونيو ٢٠٢٣
المكان: قسم شرطة القاهرة الجديدة.

- أول أمس، كنت أعتقد أن (يوسف) يستعين بي لمعرفة رأيي في قضية قتل محيرة، واليوم صرت شريكه في خطته المحكمة لمعرفة القاتل الحقيقي! في خلال هذه الجلسة علمت من (كمال كاظم) وزوجته أن والدته كانت تحب ابنتهما بشدة، وأنهما لا يستوعبان فكرة أنها قتلتها!! وحتى إن فعلت، فلن تعطيها كوب العصير المسموم أمام الجميع! أما عن سبب ترك الزوجة لقصرعائلة (كاظم) فكان من توابع انهيارها عقب وفاة ابنتها المأساوية ورغبتها في الوجود إلى جانب حفيدها! كما أكد لي زوج الضحية أيضا فيما بعد أنه غير مقتنع بما حدث! صحيح أن جدة زوجته كانت قد وجهت إليها تهديدا صباح يوم الحادث، ولكنها على – حد تعبيره– كانت تتكلم بانفعال، كما كل الأمهات حين يغضبن! جميعهن يتوعدن أطفالهن بالويل والثبور وعظائم الأمور إذا لم يفعل أبناؤهن ما أُمروهن به.، ثم ما يلبثن أن تصفو قلوبهن سريعا صفوا يسمو عن كل كدر. أرأيت أما طبيعية تقتل ابنتها أو

ابنها بعد غضبة أمومية معتادة تحدث في كل بيت؟!. غير أن السيدة (عائشة داود) شعرت بالذنب بعد ما قالته، وذهبت لتصالح (ماهيتاب) رحمها الله أمامنا جميعا، كما أنها...

هنا صمت (مالك السويفي) عن حديثه لبرهة، كمن تذكّر تفصيلة ما كان قد غفل عنها، وأردف قائلًا:..

- ثم إنها أعطتنا الأكواب بطريقة عشوائية!

نعم هي لم تكن تحمل الكوب المسموم وحده، بل كانت تحمل صينية كبيرة عليها ثلاثة أكواب، أعطت واحدة لي ولـ (ماهيتاب) والثالث كان لها، وهذا لا يعني غير شيء واحد!!!

هنا صمت (مالك) وتكلمت أنا...

- هذا يعني أن القاتل أراد (عائشة) وأراد الله (ماهيتاب)!

الآن أنا داخل القسم الذي حدث في محيطه جريمة القتل، أنتظر لقيا (عائشة داود) للمرة الأولى! ولم أنس أن أبررما أفعل للسيد (رشيد كاظم)،لأنني كنت أعلم أنه سيدري بزيارتي لها، لذلك حينما أخبرته عن أن هدفي من الزيارة هو الاطلاع على أقوالها ومتابعة سير التحقيقات، وافق ولم يعلق على الأمر. وحينها حل دوري في طرح ما أريد من الأسئلة..

- عظم الله أجرك سيدة (عائشة)، دعينا نتفق مبدئيا على أنني معك ولست ضدك، ودعيني أخبرك أيضا أن ولدك، وزوجته، وزوج حفيدتك، لا يصدقون أنكِ الفاعلة. ولكنهم لا يستطيعون زيارتك الآن حرصا على سلامتك، فهم يخشون عليك من بطش السيد (رشيد). أخبرك صدقًا –سيدتي- بيقيني من براءتك!.. وإن كنت التزمت جانب الدفاع عن حق حفيدتك رحمها الله..بيد أني أفعل هذا من أجل سلامتك الشخصية، صدقيني! أما بشأن خطوات الترافع، فسوف تُعين لكِ الدولة محاميا للترافع عنكِ، اقبلي هذا الأمر ولا ترفضيه.. ولا تخبري أحدا بما دار بيننا. توقعي الشخصي أن هناك من حاول قتلك، وطال الأمر(ماهيتاب) عن طريق الخطأ! هل فهمت ما أُقوله سيدة (عائشة)؟

هزت رأسها في صمت ولم تُعلق! كانت المرأة في أسوأ حالتها، شاحبة هزيلة زائغة البصر..أراها وقد صارت تشبه أمي كثيرا! ولا أدري لما لم أبد نحوها شيئًا من التعاطف المفترض في مثل تلك الأحوال! وإن كنت قد عزمت على أن أساعدها إيمانا مني ببراءتها، ولكن إحساسا قلبيا خفيًّا جعلني لا أستطيع تقبل هذه المرأة.

- سيدة (عائشة) حينما ذهبت لمقابلة السيد (رشيد) استوقفني حارس القصر ودس في يدي ورقة صغيرة مدون بها رقم هاتف.. اتضح لي بعدها أنه رقم الرجل ذاته، أتعلمين بماذا أخبرني حينما

هاتفته؟ أخبرني أنه يعلم هوية قاتل حفيدتك.. وعليَّ -إن كنت أود معرفة الحقيقة- أن أدفع له مبلغا معينا من المال. وافقت من فوري، وعلم ابنك بالأمر ووافق هو الآخر.. ولكن حينما اتصلت بذاك الرجل البارحة وجدت هاتفه مغلقا!! كما أنه اختفى من مقر سكنه وعمله بجانب منزلكم. أتعلمين ما يعنيه هذا؟ أن هناك من يحاول إلصاق تهمة قتل حفيدتك بكِ كي يتخلص منكِ! هذا الشخص أيضا علم باتصال حارس القصر بي وأتوقع أنه قد اختطفه للأسف! أنتِ تعلمين بهويته، كما تعلمين لماذا فعل! ذلك الشخص هو زوجك يا سيدتي!...أليس كذلك؟ والآن لتخبريني لماذا يحاول (رشيد كاظم) إلصاق جريمة قتل بكِ، جريمة يعلم هو –يقينا- أنكِ لم تفعليها! كما ستخبريني أيضا عن سر صراعك اللامبرر مع حفيدتك! السر الذي كان من وراء تهديداتك الدائمة لها .

بدأت المرأة ترتجف في مقعدها كمن أصابته الحمى فجأة، كان وقع المفاجأة عليها كبيرا! إلا أنها استطاعت السيطرة على نفسها في نهاية الأمر، وبدأت في سرد حقيقتها العفنة. الحقيقة التي اكتملت أمامي بفضل مذكرات ابنة أخي الحبيبة.

***

(دفترسُلاف)

الحقيقة الرابعة

آثامي القديمة لم تسقط بالتقادم..

بل سقطت فوق رأسي

في آخر الأمر!

الزمان: أكتوبر ٢٠١٩
المكان: منزل عائلة الذهبي.. مدينة القاهرة

أمضيت في المشفى أسبوعا كاملا أدرك خلالها أبي أنه لن يحصل على إجابة سؤاله مني أبدا، وحينما يأس من معرفة أسباب مرضي الحقيقية بدأ يشغل ذاته بالبحث في أسباب الشفاء، كما أن ما قام به جدي (عادل) غير من حدة عدائه تجاهه قليلا. لقد رفض مغادرة القاهرة حتى أتحسن فعليا، كما رفض الإقامة في بيت العائلة بالقاهرة.. وقرر تأجير منزل بسيط للإقامة فيه، أما عن عمي (سليم) وابنته (جميلة) فقد أقنعهما بالعودة للمنيا من أجل عملهما. أخبرني فيما بعد أنه فعلها كي يحظى بأطول فرصة ممكنة للبقاء بجانبي فيها وحدنا.

حدث هذا وسط دهشة الجميع من طيبة السيد (عادل الذهبي) غير المتوقعة – خاصة أبي– الذي لم يعتد منه كل هذا القدر من المحبة والاهتمام تجاهه وتجاه ابنته، إلا أنه أرجع هذا لكبر سنه ربما ولأن الناس تتغير كلما تقدم بها العمر.. وكان هذا تفسير جدي (يوسف) أيضا حينها وقد سمعته يحدث أبي قائلا:

- هل رأيت يا بني..ألم أخبرك أن عمك رجل طيب. لم يقو على رؤية ابنتك وهيي على هذه الحال، وظل بجانبك وجانبها حتى منَّ الله عليها بالشفاء. اعف عنه يا بني لقد صار شيخا كبيرا لا يحتمل قلبه فكرة كره ابن أخيه له! ابن أخيه الذي يحبه ويحب ابنته.

آلمني قلبي حينما سمعت هذا، كلام جدي (يوسف) صحيح في كل شيء، ما عدا جزئية ابن أخيه لأن أبي هو الولد غير الشرعي لـ (عادل الذهبي)، وأسفاه على حالك يا جدي (يوسف). وبالرغم من احتفاء الأسرة كلها بلم الشمل من جديد، إلا أنني رأيت نيرانًا جديدة تشتعل مرة أخرى على مقربة منا.. رأيتها في عيني جدتي!

بعدما خرجت من المشفى أخبرني جدي (عادل) أنه قد آن أوان رحيله، الآن يمكنه الموت وهو ينعم ببعض الراحة بعد أن علمت كم هو نادم.. والأهم أنني أدركت مقدار محبته لي! عانقته وقبلت يديه قبل أن يعود، أخبرته أنني أيضا أحبه وأقدره طوال عمري وأنه لا يمكنني أن أحكم عليه أبدا. أخبرته أنني أحبه رغم كل شيء وأي شيء، ووعدته أن آتي لزيارته في المنيا قريبا.. كما وعدته أنني سأفعل كل شيء يمكنني فعله من أجل أن تتحسن علاقته بأبي.

أعلم أن من سيقرأ كلماتي سيراني فتاة لا تتحلى بالعدل وتكيل بمكيالين، تغفر لجدها ولا تغفر لجدتها ذات الخطأ، ولكن يعلم الله أني

أحب الاثنين ولا شيء غيَّر مكانتهما في قلبي.. إلا أن الندم الذي لطالما رأيته على مدار عمري في عينيّ جدي (عادل)، الندم الذي أدركت دوافعه مؤخرا كان يختلف كلية عن جبروت جدتي (نادية)، فقد كانت أقرب لوحش استخدم مخالبه وأنيابه أثناء حديث الاعتراف يوم زفافي.. والأسوأ أنها ليست نادمة على خيانة زوجها الطيب مع أخيه .

هي ترى أنها فعلت الصواب، زوجها عقيم لا ينجب، هذا يعني أن لا قيمة لها ولا مكانة في (قصر عائلة الذهبي) وعلى نفس المنوال شاءت الأقدار أن أخاه الثاني ينجب ولكن زوجته لا تتحمل ولادة طفل بسبب حالتها الصحية الصعبة. فما الحل من وجهة نظرها الآن؟!

الحل الذي ارتئته بميكافيلليةٍ فجة، كان أن تستبدل الرجل بأخيه.. هكذا وبكل صفاقة! ودون أن تستشعر ولو نذرًا يسيرًا من خزي أو خجل ولا حتى ندم! ولولا أن القدر وهب جدتي عمي (أحمد) في كبرها، لبقي جدي (يوسف) رجلا مخدوعا يحيا أكذوبة كبرى مشينة. وإن كنت أرجو من الله شيئا في دنياي، فهو أن يحفظ عمي ويرزقه زوجة صالحة تبرُّه، وأبناء طيبين يمحون عار وجودي ووجود أبي في هذه الدنيا الواسعة.

وخلال متابعتي الطبية بعد أزمتي القلبية الأخيرة علمت بالخبر السعيد الذي تتوق لسماعه كل امرأة، ألا وهو خبر حملي. لا أصدق..أنا حامل، سأصير أما حقا؟

ظللت حائرة لا أعلم هل أفرح أم أحزن؟!.. أأفرح باستقبال طفلي الأول، أم أحزن لأنني في مرحلة علاجية صعبة وقد يؤثر هذا سلبا على طفلي الصغير؟!.. لم أكن أعلم وقتها أنها فتاة ولم أسع للمعرفة حتى حان يوم ميلادها... لقد أحببت أن أحيا على انتظار هدية الله الغالية لي..

والحمد لله كان كل شيء يسير طبيعيا أمامي.. الآن أتذكر فرحة أفراد عائلتي حينما أخبرتهم بأمر الحمل. أتذكر أبي الذي هب لاحتضاني أمام العائلة كلها، زغاريد أمي وجدتي، فرحة جدي (يوسف) ودموعه، وابتسامة عمي (أحمد) الصافية.

وتظل فرحة أبي الحقيقية الطاغية تعلو على ما سواها عند هؤلاء جميعا، كان هذا أجمل ما أكبرته فيه، حنانه الفياض وحدبه عليَّ، وتقديره لي الذي كان يجعلني مزهوة به أمام الناس جميعهم. وعلى عكس ما كان يبديه ظاهرُه للناس من شدة، فقد كان أرقَّ خلق الله عليّ ومعي. لا شبيه لأبي في هذه الدنيا! ولا أحد غيره بقادر على تعويض مكانته في نفسي.

كان أمامي الآن مهمة جديدة.. وهي الاتصال بجدي (عادل) وإخباره بنبأ حملي، لا أعلم لماذا أردت مهاتفته؟! أليس من المفترض أن أراه خائنا؟ أليس من المفترض أن أكن له الضغينة؟! ومن المفترض أيضا ألا أطمح في إقامة أية علاقة معه؟! لماذا أراني أسعى للتواصل معه؟!

أتذكر هذه اللحظة جيدا، لحظة مهاتفتي إياه وإخباره، أقسم أنني شعرت بدموعه وهي تنساب على وجهه.. صمت كلانا فترة طويلة حتى تكلم هو...

- سيصبح ولدي جدا لطفل ما في هذه الدنيا، بينما هو لا يعلم حتى أنه طفلي الصغير وولدي الحبيب وخطيئتي الكبرى.

كنت أبكي معه وأشعر بما يعتمل في نفسه.. ويبدو أنه بدأ يتذكر أنني كدت أن أخسر حياتي بسببه، فراح يغير مجرى الحديث ويسألني عن صحة الجنين، ومتى سأعلم نوعه، وأي فاكهة أشتهي الآن؟

هكذا تعددت الأسئلة وابتعد الحديث عن الجانب السيىء من الحكاية المظلمة، وبعد ساعة أو يزيد من الحديث، لاحظت دخول (جميلة) عليه حينما سمعت صوتها بعيدا في الخلفية، استأذنته لإنهاء المكالمة وطلبت منه ألا يخبر أحدا أنني المتصل حتى أخبر (جميلة) أولا بالخبر السعيد. إلا أنه كان بانتظاري خبر آخر غير متوقع في تلك الأثناء..

حينما تواصلت مع ابنة عمي لاحظت كم تبدو السعادة جلية من نبرة صوتها، إلا أنها كانت خجلة في الوقت ذاته، لذا صمت وأفسحت لها المجال في الحديث، أخبرتني أنها تعرفت إلى شخص ما عن طريق عمل والدها. ضابط صغير يثق فيه والدها ويراه رجلا طيبا ذا مستقبل واعد، كان قد عُيّن مؤخرا في مقر عمل عمي (سليم)، وهكذا ودون أن تدري

كيف هذا، فقد أخبرتني ابنة عمي وخالتي العزيزة أنها وقعت في غرام فتى وسيم وضابط متميز يدعى (يوسف)!

وأن (يوسف) هذا قد فاتح والدها في أمرهما ونال القبول المبدئي، شريطة ألا تتم الخطبة الرسمية قبل أن تنهي دراستها العليا وتخطو خطواتها الأولى في عالم تصميم الأزياء، فهو لن يقبل بأن تنهار أحلام ابنته العملية قبل بدايتها، وحين يحدث هذا كله سوف تُعلن خطبتهما الرسمية.

الزمان: الثالث من يونيو ٢٠٢٣
المكان: قسم شرطة القاهرة الجديدة.

ساد الصمت بيننا قليلا حتى قررت قطعه بإشعال سيجارتين، أعطيت واحدة منهما للسيدة (عائشة) وتناولت الأخرى، كنت قد علمت مسبقا أنها لا تتوقف عن التدخين من حديثي مع ابنها..فقد تعمدت أن أجمع عنها أكبر قدر من المعلومات.. ماذا تحب؟ ماذا تكره؟

وهكذا استطعت أن أعلم عنها نقطتين من الضعف أولهما أنها مدخنة شرهة، وثانيهما أنها تتحاشى المواجهات. لذلك فكرت أنني إذا ما واجهتها بما أعلم ثم أتبعت هذا بإشعالي لسيجارتين أمامها وعرض واحدة عليها فستكون النتيجة الحتمية هي حصولي على ما أريد.. الاعتراف بالحقيقة. وهنا فوجئت بها تتكلم في هدوء ووداعة وكأنها تحكي حكاية لا تخصها، حكاية عن سيدة أخرى يرثى لحالها كل من يسمع قصتها...

- اسمعني جيدا يا ولدي، لقد فقدت أغلى الناس ولم تعد لحياتي قيمة عندي. أنت تقول أن (رشيد) يعلم ببراءتي وفي ذات الوقت يسعى خلف إعدامي. حسنا في الماضي كان يمكنني أن أحاول

حماية نفسي، ولكن الآن وبعد فقدي لـ (ماهيتاب) وتسببي في مقتلها لم يعد يهمني الأمر. لذلك أريد أن أعلمك أنك وحيد في رحلة بحثك عن الحقيقة لأنني وبكل بساطة لا أسعى للنجاة. فأنا أستحق كل ما حدث وسيحدث لي، وعقاب (رشيد) سيكون في استمراره على قيد الحياة، أما أنا فسوف أنجو بإعدامي. وهذا هو الشيء الوحيد الذي سيشعرني بالتطهر. والآن سأعلمك كل ما تريد معرفته دون لف أو دوران.....

(دفترسُلاف)

الحقيقة الخامسة

في الحلم

رأيت الحفرة العميقة

التي أسقطني فيها أحبابي

وعلى حافتها

وقفت أشاهد

مراسم دفني.

الزمان: أكتوبر ٢٠٢٠.
المكان: بيتي أنا و(رامي).. مدينة القاهرة.

ها أنا صرت أما لطفلة صغيرة تدعى (كرمة) ابنتي التي شفيت – بمقدمها- نفسي من كل أوجاعها ..وكأن ما مضى من العمر دونها كان كذبة كبرى. لا يمكنني أنا أصف مشاعر أبي حين حمل طفلتي بين يديه لأول مرة، ما رأيته في عينيه كان مزيجا من الفرحة والرهبة، أخبرني فيما بعد أنه كان يشعر أثناء ولادتي بأن قلبه سيتوقف، وظل يدعو الله أن ينجيني أنا ومولودي. خاصة وأن ولادتي كانت متعسرة.. ومع هاجس فقدي الذي لازمه بعد أزمتي القلبية الأخيرة، صار أبي لا يعرف طعما للنوم حتى انتهى الأمر بقدوم ابنتي على خير. ولكن لأن لحلو لا يكتمل دائما...

ففي أثناء إحدى زيارات جدي (عادل) لي، زارني أبي ورآه عندي! وما أدركته في حينها أن مجئ والدي لم يكن صدفة أبدا، فعلى ما يبدو أنه كان يراقب عمه..أو من يظنه عمه! وللأسف الشديد حدث ما توقعته منذ شهور، الصدام الحتمي!

جمال:

- ماذا تفعل في بيت ابنتي يا عمي..هل من الطبيعي أن تأتي من المنيا كل أسبوع تقريبا لتزور حفيدة أخيك وابنة عدوك ؟!

سُلاف:

- أبي توقف رجاءً ماذا تفعل؟ جدي (عادل) آتي لزيارتي والاطمئنان على حالى.

جمال:

- (سُلاف) أنتِ لا تفهمين الأمر..لو كان عما صالحا لسعدت برؤياه في بيت ابنتي ولكنه ليس كذلك.. إنه لم يحبني يوما هل تتوقعين أن يحبكِ أنت؟! من يكره الأصل لن يحب الفرع يوما! هذا إلى جانب شكي في أنه وراء مرضك.. بكاؤه وخوفه عليكِ لم يكن مبررا أبدا. بداية توقعت أنه كبر وتغير ولكن لا! الآن أدرك أنه نادم على شيء ما... هيا يا عمي أخبرني ما وراءك، ما الذي تريده من ابنتي وعائلتها الصغيرة؟ ماذا فعلوا لك.. هيا أخبرني؟ في هذه المرحلة لم أتحمل تصرفات أبي، كانت نظرات جدي (عادل) الحزينة تذبح قلبي وتدميه، لا يمكنني رؤية الانكسار البادي في عينيه وهو يُهان من ولده.. وإن كان لا يعلم الآخر أنه ولده! خاصة أنه ظل صامتا ولم يعلق على كلمات أبي القاسية

تجاهه. وساعتها لم أتحمل ما أراه ولأول مرة في عمري كله رفعت صوتي على أبي كي يتوقف.

سُلاف:

- أبي هذا بيتي أنا و (رامي) ونحن وحدنا من نقرر من نستقبل ومتى نستقبل. علاقتنا بالآخرين ليست مرهونة برضاك عنها، نعم هناك خلافات بينك وبين عمك.. ولكن هذا لا يعطيك حق إهانته في بيتي.

صمتٌ قليلا ثم أكملت...

- كما لا يحق لك تتبع من يزورني وسؤالهم عن سبب الزيارة؟ لست طفلة غريرة يا أبي.! أنا امرأة حرة عاقلة رشيدة، أم عندك شك في عقلي ورشادي؟!

لا أدري كيف حدثته هكذا! لم أنتبه سوى حينما رأيت عينيه مغرورقتين بالدمع وهو ذاهل مما سمع مني، غير مصدق لما بدر مني منذ لحظات معدودة! لم يكن غاضبا بقدر ما كان مصدوما! وقتها تدخل جدي (عادل) وهو يمسك بيدي في ضعف ويردد:

- (سُلاف) توقفي ولا تحدثي أباكِ هكذا.. أنا لا أستحق أن تخسريه لأجلي.

هو محق في مخاوفه تجاهي، لم ير مني خيرا قط..ولكن أقسم لك يا ولدي وأمام ابنتك أنني أحببتك كما أحببت (سليم).. وربما.. ربما أكون قد أحببتك أكثر.

جمال:

- ولأجل كل هذه المحبة رفعت يدك علي، اختطفت خطيبتي وقتلتها، ولم تكتف بل حاولت قتلي يوم موت أبيك، أليس كذلك يا عمي الحبيب؟!

سُلاف:

- ماذا؟ ما هذا الذي تقوله يا أبي؟!

جمال:

- أنا لن أقول شيئا بعد اليوم.. فليتفضل عمي الطيب بالشرح بدلا عني، أما أنا فأعتذر منكِ يا سيدة (سُلاف) لأنني حاولت التحكم فيكِ وخالفت قوانين بيتك. فلتعتبري أباكِ في عداد الموتى منذ الآن.. ومنزلك هذا لن تطأه قدماي مرة أخرى!

ارتعبت من كلمات أبي وهرعت وراءه أحاول إرجاعه إلا أنه كان قد غادر المنزل منطلقا إلى قيادة سيارته. وفي أقل من نصف دقيقة كنت أقف قبالة جدي وأنا أردد جملة واحدة ..

- الآن صار عليك أن توضح لي كل ما حدث!

يتكأ جدي على عصاه في وهن شديد ويجلس فوق إحدى الآرائك وهو يردد:

- سأتكلم يا ابنتي، لم يعد هناك مفر..سأتكلم.

ولكن عديني ألا تمرضي مثل المرة الأولى.. أرجوكِ. ركعت على ركبتي أمامه ثم أمسكت يديه وقبلت كلاهما وأنا أردد..

- أنا أشعر بصدق توبتك، صحيح أن ما حدث صعب ولكن الله رحيم. وأنا لم أعش ما عشته أنت كي أحكم عليك، الله وحده هو القاهر الحاكم فوق عباده يا جدي.

بدأ في البكاء ثانية، وكأن بكاءه كان بوابة عبوري للحقيقة.. فمع كل دمعة استطعت أن أرى الوجه الحقيقي للمدعو (عادل الذهبي). أخبرني بحكايته التي لا يعلمها عنه سواه.. الحكاية التي سأرويها على لسانه كما رواها هو.

- اسمعيني جيدا يا ابنتي قبل أن أتحول لشيطان في نظر والدك كنت فتى عاديا ذات يوم، ولدت قبل أخي (يوسف) بأربع سنوات عشتها في هناءة بين أمي وأبي، فقد كنت فتى أمي المدلل وقرة عين أبي واستمر الحال على ذلك الوضع حتى جاء أخي إلى الدنيا، وبمجيئه انقلبت المعايير في المنزل. صحيح أن مكانتي عند أمي

استمرت على ما عهدته منها ولكن على الصعيد الآخر انصرف عني أبي وكأنه لا يراني، وبدأ في رؤية (يوسف) وكأنه مركز الكون. أتذكر كيف نُزع عني سلطاني، إذ صارت الدنيا كلها (يوسف).. (يوسف) ابتسم، (يوسف) نظر في عينيّ، (يوسف) أكل اليوم لأول مرة في حياته، (يوسف) نطق كلمة أبي، (يوسف، يوسف، يوسف،.. دائرة غير منتهية ونبذ غير مبرر من أبي لي منذ اللحظة الأولى التي أبصر فيها (يوسف) وحمله بين يديه. وعلى الجانب الآخر شعُرتْ أمي بعمق الفجوة التي يصطنعها زوجها بيني وبينه، والأسوأ الفجوة التي سيصطنعها بيني وبين أخي الصغير. ووقتها اختبرت المعنى الحقيقي للحنان في رفقة أمي الحانية، التي لم تفرق بيننا قط. كلانا ولداها، وكلانا قطعة من قلبها وروحها كما قالت لي مرارا، وإن كانت تختصني دائما بمزيد من المديح والثناء كنوع من التعويض لي عن جفاء أبي. كانت أمي سيدة حقيقية يا (سُلاف)، أسماها والداها (كاملة) وكانت اسما على مسمى. أعطاها الله كل شيء يمكن أن تمتاز به امرأة، المال، الجمال، حُسن الخُلق، التدين، والذرية. ولكن سبحان الله رغم كل ميزاتها كانت عليلة الصحة، وقبل أن أتجاوز عامي الخامس عشر في هذه الدنيا وبينما (يوسف) في الحادية عشرة.. فقدناها في ليلة شتوية قارسة البرودة. أتعلمين أنكِ تشبهينها للغاية يا

ابنتي؟! لقد ماتت على ذراعي، بعد أن تخلى عنها أبي راكضا خلف المال والتجارة.. المال الذي كان ملكا لها في أصله ووهبته كله لأبي حتى صار بين ليلة وضحاها رجلا ذا ثروة وجاه. صحيح أنه لم يكن معدما قبل زيجته منها، ولكن يمكننا القول أنه كان رجلا عاديا.. وبفضلها صار سيد قومه وبلدته. هو لم يسرقها ولم ينهب أموالها، بالعكس لقد ازدادت رقعة ممتلكاتها بفضله، ولكنه أهملها في المقابل. أعطاها ولدين وأملاكا كثيرة.. ولكنه سلبها في المقابل ما كانت تهدف إليه حينما تزوجته.. المحبة! ولكنها عوضت فقدها للحب بوجودي ووجود أخي.

صمت قليلا ثم أكمل والابتسامة المرة تعلو وجهه...

- أتعلمين يا ابنتي أنني شارفت على أن ألحق بأمي وبدلا من أن يذوي حزني عليها بمرور الزمن أراه يزداد داخلي حتى ابتلعني تماما. لا أستطيع أن أنسى كلماتها الأخيرة لي.. "(عادل) أنت ولدي الحبيب طيب القلب، أسميتك (عادل) لتنشر العدل بين أحبابك، اعتن بأخيك ولا تتحول لنسخة جافة القلب مثل أبيك. حينما يأتي الوقت المناسب تزوج فتاة طيبة مثلك، وأنجب منها أبناءً صالحين وكن حنونا مع أهل بيتك وحنونا على أخيك وأهل بيته أيضا.. ولا تنس أباك.. عامله برحمة فهو يحبك رغم ما يُظهره لك من تجاهل. عدني بهذا"..

صمت جدي مرة أخرى، ولكنه فعلها هذه المرة كي يمسح عبراته ثم أكمل..

- ما إن وعدتها حتى أغمضت عينيها إلى الأبد. كنت وحدي معها.. وكان أخي في مكان ما مع أبي كعادتهما، كنا قد انقسمنا لحزبين في البيت، حزبي أنا وأمي، وحزب أبي وأخي (يوسف). ولكن بعد رحيل أمي تغير كل شيء.. نفذت الجزء الأول من وصيتها، اعتنيت بأخي وبأبي أيضا، ولكني بالمقابل تقوقعت على ذاتي أكثر. لقد فقدت في حينها السيدة الوحيدة التي استطاعت أن تمنحني المحبة غير المشروطة في هذه الدنيا. وعلى عكس ما توقعت لم ينج (يوسف) من ألمه على فقد أمي، بل تحول شعور الحزن داخله لشعور بالذنب. وبدأ في الابتعاد عن أبي شيئا فشيئا حتى اتسعت الهوة بينهما، لقد شعر أخي وقتها بأن أبانا حرمه بمحبته الزائدة من قضاء وقت أطول مع أمي. لذلك كان عقابه له ولذاته هو أن يهدم جسر علاقتهما المميزة، وفي النهاية اتسعت الفجوة داخلنا وابتعدنا عن أبي شيئا فشيئا وصارت أرواحنا خواء بعد أن رحل عنا نبع الرحمة والحنان. وبينما يبتعد أخي عن أبي، بدأ أبي في البحث عني كبديل لولده المفضل. وكان هناك جزء كبير من نفسي يستحسن التغيير، فأي عاقل هذا يمكنه رفض حنان أبيه ورعايته؟!

ومن هنا بدأت الكارثة التي أدركت معناها فيما بعد.. وهو أن أبي لا يمكنه أن يحيا دون أن يميز ولدا على الآخروبعد وفاة أمي انقلب الحال فصرت عزيز أبي بدلا من أخي (يوسف). ومع رعاية أبي الزائدة لي، اتجهت لدراسة التجارة من أجل العمل معه، بينما التجأ (يوسف) لعالم الشعر والرواية، حتى أنه التحق للدراسة بكلية الآداب وهناك قابل جدتك (نادية)! فتاة رقيقة الحال وهذا لا يعيبها يا ابنتي أنا لا أذم فيها لفقرها، ولكنها وبكل أسف بدلا من أن تسعى للنهوض بنفسها وتبديل أحوالها بالتسلح بالعلم، سعت بأخس وسيلة تلجأ إليها امرأة! نعم، لقد كان (يوسف) صيدها السهل ووسيلتها لبلوغ طموحاتها الكبرى.. رجل مخذول، قلبه مثخن بجروح لم تندمل، يبحث عن ظل الأم التي فقدها – صغيرا- في كل فتاة يلقاها، ومع قليل من الاهتمام المصطنع تزوج أول فتاة ألقت شباكها عليه! وهكذا تمت زيجتهما سريعا.. ولكنهما لم ينجبا في أول عامين، وحينها بدأت خطة السيدة (نادية) في استقطابي والإيقاع بي. تسللت إليَّ كحيَّة رقطاء، علمت كيف تنفذ إليَّ باستدرار عطفي وشفقتي. لعبت بجدارة دور الضحية وتشكَّت ضعفها وقلة حيلتها وهي المرأة الوحيدة في بلد بعيد، تحيا في قصرٍ مَشيد مع زوج لا يفهمها..! في البداية ترددت إليَّ بمعسول الكلام الذي كانت تجيده، والرجال يا ابنتي -إلا مَن رحم ربي- يستميلهم المديح والثناء إذ يغذي نرجسيتهم ويشعرهم بالتفوق. أشعرتني بالقيمة والتقدير، فأنا الأخ الكبير العاقل -كما

وصفتني- ثم أخذت في امتداح مواهبي وحميد صفاتي! حدثتني عن تماثلنا في حيازة البخت المائل والحظ التعس ورَثت لحالي الذي يشبه حالها، فأنا أيضا متزوج من سيدة لا تفهمني مطلقا! لا أعلم متى أو كيف اقتحمت عالمي ..صدقيني! ولا أدري كيف كان يصير يومي دون طعم أو معنى إذا لم تحدثني هي أثناءه! ولا يساورك الظن يا ابنتي أني أروي هذا لأبرئ ذاتي..أبدا. إن خطئي أعظم وأشد، وأدعو الله أن يقتص من شخصي وحدي لأتطهر من فعلتي النكراء في الدنيا قبل الآخرة، آه يا إلهي كم أنا نادم على خيانة أخي واستباحة عرضه! ولكن هيهات أن يعود الزمن.. فلقد حدث ما حدث وانتهى الأمر الذي لم يستغرق أكثر من شهرين! بعدها اختفت عن عالمي كأنها لم تكن! صارت بين عشية وضحاها زوجة أخي المحترمة والتي لا تريد الاستمرار في معاقرة الذنب واستغفرت الله وتابت وأنابت! صدقتها وقتها فلم أكن راضيا عن حقارتي أنا الآخر، ولكن الكارثة حلت عندما فوجئت بها تعلن في غضون أسبوع بعد انقضاء ما بيننا عن نبأ حملها السعيد! كنا نتناول الغداء عندما وجدتها تخبرنا بكل وداعة أن عائلتنا الصغيرة سيزداد عدد أفرادها واحدا! وقتها أدركت متأخرًا أنها قد تمت لها خطتها الوضيعة بنجاح. هي لم تخن زوجها لأنها أحبت أخاه، بل خانته لأنها أرادت الاستفادة من أخيه! وأنا المغفل الذي ظن ما بيننا حبا، بينما كانت خطة شيطانية حقيرة لا تقل في دناءتها عن فعل الخيانة ذاته . خطة جلب الوريث.. لقد بارك لها الجميع، حتى

زوجتي (جميلة) رحمها الله باركت لها بكل محبة وود وهي التي لا تدري من أمرها شيئا. والأسوأ أن عقابي كان اضطراري لتهنئتها أمام الجميع. وعندما واجهتها لأول مرة بعد أسبوعين من خبر حملها، أخبرتني نصا أنني شريكها فيما حدث، وإن كنت رجلا حقيقيا فلأذهب وأخبر أخي بخيانتي. أتعلمين أنني كنت ذاهبا لإخباره حقا..ولكني وجدت زوجتي أمامي تبشرني بنبأ حملها هي الأخرى! وأسقط في يدي.. لقد كنت ذاهبا من أجل أن ألقى حتفي بيديّ أخي ، والآن صمت إشفاقًا على ولديَّ. آثرت الصمت وابتلاع الحسرة لأكثر من خمسين عاما، ولم يفت وقت طويل بعد ميلاد ولديَّ حتى فقدت زوجتي الحبيبة، وكأن الله عاقبني لإهمالي لها فأخذها مني! وبموتها اختبرت بالتجربة المُرة معنى الحب والفقد. لقد علمت حقا مقدار محبتي وتقديري لزوجتي إلا حين غابت عن دنياي. تيقنت من هذا حين خسرتها للأبد. أنا ولد عاق، وزوج خائن، وأب لعين.. وبمرور الوقت تحولت لجد عاجز. لم أنفذ وصية أمي، خنت أخي، وأهملت أبنائي.. حتى (سليم) أبعدته عني رغم محاولاته المستميتة حتى الآن للتقرب مني.. كنت أرى فيه براءة والدته ولم أشأ أن ألوثه بحقارتي. أما (جمال) فكان الوجه الحقيقي لي، كان يشبهني كثيرا.. ملامحه، صفاته، كلماته، قراراته. حتى حب القراءة التي ظن الجميع أنه ورثها من (يوسف) قد ورثها مني أنا وليس منه هو. فلطالما كنت قارئا مطلعا ولكن في الخفاء دون أن أعلن هذا، على عكس (يوسف) الذي كان

يعشق الكتب فلا يمكن أن يُرخاليا في مكان دون صحبة كِتاب. أما أنا فكنت أقرأ آخر الليل في انفرادي.. وهكذا يفعل (جمال). لذلك اتخذت قراري القاسي علي نفسي.. وهو الابتعاد عن أبنائي.. الاثنين. فقد خشيت أن يرى أبوكِ في عيني ما رأيتيه أنتِ فيهما يا ابنتي، لذلك أمضيت عمري كله أتحاشى النظر إليه وإذا ما فعلت كنت أتعمد أن أظهر أمامه بمظهر الرجل القاسي المتحجر القلب كي لا يألف صحبتي ويقترب مني. ويا ويلي إن كان قد فعل.. ما كان قلبي ليتحمل هذا، ربما كنت لأعترف له ساعتها بكل شيء. ولأنني هجرت ولدا، حكمت على الآخر بالهجران. عاقبت نفسي بأن أترك تربية الاثنين لـ (يوسف) و(نادية) حتى أنني قد حرمت على نفسي وقتها الزواج. عاقبت ذاتي بأن صرت جذعا يابسا لا أمل في شفائه أو مداواة جفائه. وانغمست أكثر في هموم العمل، وصارت تجارتنا العادية ثروة جبارة، حتى أنني قد تفوقت على أبي، وكان هذا يسعده كثيرا فالحاج (حسين) لا يسعد بغير رؤية المال. لقد خسرت كل شيء أخي، ولديَّ، ديني، وحتى حبيبتي (جميلة) رحمها الله، أتعلمين أن عمك قد سمى ابنته على اسمها بسببي؟ لقد فقدني مع والدته، ولم يبق له سوى الحكايات عنها...حبيبي يا (سليم) فقدت والدتك مبكرا وسعيت لتعويض فقدك لها في شخص ابنتك، وها هي ابنته تعوض فقدها لأمها بتأسيس مشروع أزياء (غالية) علها ترى أمها في أي شيء حولها وإن كان

هذه الرؤيا مُمثلةً في اسم تجاري يذكرها بها! أما أنا فقد عوض فقدي بوجود عمه (يوسف).

لم يستطع أن يلتقط أنفاسه بعد هذه الكلمات، أسرعت لأحضر له بعض الماء البارد علّه يتحسن .. وبعد دقائق استرد القدرة ثانية على الحديث...

- أتعلمين أنني عشت عمري كله أراقب أباكِ يا عزيزتي وأرى تصرفاته، كان يظن هو بعقل الشباب أنني أقارنه بـ (سليم) ولكني كنت أقارنه بذاتي أنا.. أبحث عني فيه. ورغم ندمي على ما اقترفت من الخطيئة التي كان ثمرتها مجيئه إلى الدنيا، لم أستطع سوى أن أحبه! إنه ولدي.. حبيبي.. شبيهي. أتدرين، في كل عام قبل عيد ميلاده كنت أسأل (سليم) عما يرضي ذائقة (جمال)، فقد شاء الله أن يصيرا أخوين على أرض الواقع.. من الأب والأم معا.

فقد تطوعت جدتك بإرضاع (سليم) بعد وفاة أمه.. لا أعلم لم فعلتها! ربما لوجه الله تعالى وربما بغرض هيمنتها على البيت كله. لا أدري حقا ولكنني ممتن لصنيعها هذا.. فقد كانت لا تفرق بين الولدين، وقد رأيت منها تجاه (سليم) ما يؤكد لي محبتها الحقيقية له حتى وقتنا الحاضر. أنني أذكر يوم ميلاد (جمال) الثامن عشر وكان (سليم) قد أخبرني أنه يفضل تربية الخيل هذه الفترة. لذلك اخترت له فرسا عربيا أصيلا لا مثيل له، إلا أنني كنت أجبن من أن أعطيه إياه بنفسي. طلبت من أحد العاملين بالبيت

أن يناديه ويعطيه إياه نيابة عني.. وأنا أتوارى منزويا خلف شجرة أراقب صغيري وهو يظن عمه رجلا متعاليا يرفض مهاداته وجها لوجه ويرمي إليه بالهدايا عن طريق الخدم. بينما لا يعلم أن أباه الحقيقي يراقبه الآن بعينين تفيضان بالدمع وغاية ما يتمناه أن لو كان يستطيع احتضانه كأب حقيقي..ولكن الخوف يلجمه! أذهب بعيدا وأتعمد الغياب طيلة اليوم، ولا أعود إلا في وقت متأخر حتى لا ألقاه يوم ميلاده. ولكنني ألقاه وساعتها أغير ملامحي وأنا أتصنع القسوة متسائلا عن سبب استيقاظه حتى هذه الساعة المتأخرة، لأجده يشكرني لهديتي له. آه يا (سُلاف) وألف آه.. لو تدرين كيف شق قلبي لنصفين ساعتها، على ماذا يشكرني ولدي، إن روحي قليلة عليه...ولكني تعمدت الجفاء واستمررت في إظهار الكبر فما كان منه إلا أن حزن قليلا.. شعرت لحظتها بمدى حقارتي، صحيح أنني لا أريده أن يشك في أمري ولكن لا مانع من معاملته كابن أخ. لذلك تباسطت معه قليلا.. وأخبرته عن المفاجأة التي حضرتها له هو و(سليم)، فتاتين أختين كالقمر في بدر تمامه، هما ابنتا شريكنا السيد (فاضل) منذ رأيتهما أول مرة وأنا أعلم أنهما فرصة ثمينة لا يجب أن نضيعها. فهما عروستان جميلتان، مهذبتان، نفس فئتهما العمرية تقريبا، من بيت محترم، تجمعنا بهما ذات العادات والتقاليد، يصلحان للفتيين، بين الآباء شراكة عمل، وفي النهاية يذهب كل شيء لهم جميعا.. وأي شيء يحدث أفضل من هذا. كما أنني سمعت وقتها أنه يعشق شقيقة

صديقه (سالم).. وكانت فتاة لا تتخير عن جدتك في شيء. الطموح يقتلها والرغبة في الثراء تسيطر عليها، وخشيت على ولدي من مصيري ففكرت في أن أختار له ابنة أُناس طيبين نعلم نواياهم. وهنا فوجئت برفضه ورأيت في عينيه ما كنت أخشاه..رأيت نفسي. وكانت الطامة الكبرى حينما أخبرني أن أباه موافق وانتهى الأمر، لم أشعر بنفسي إلا و أنا أنهال على وجهه بلطمة مدوية، لم أضربه هو وإنما ضربت نفسي التي تسكنه، نفسي الأمارة بالسوء. ولكنه لم يعلم هذا ولن يعلم كل ما سبق وذكرته لكِ الآن، كل ما وعته نفسه وقتها وحتى الآن أن من ضربه هو عمه المتغطرس.. وهنا بدأت المعركة الحقيقية بيننا. وقف في وجهي لأول مرة أخي وأبي بينما ظلت جدتك صامتة، وما إن إنفض العراك ظاهريا بقيت وحدي مع أبي يعطيني درسا في الأخلاق عن سوء ما فعلته، خاصة وأننا كنا على علم بمحبته لـ (بسمة) رحمها الله وكذلك كان عمك (سليم) على علم بالأمر. وقتها لم يدرِ أحد بما في نفسي، لقد ضربت ولدي في عيد ميلاده بدلا من أن أضمه وأخبره كم أحبه.. أضربه.. كيف تسنى لي أن أفعل هذا؟! انتظرت حتى خلد إلى النوم ثم تسللت إلى غرفته، وهناك قبلت رأسه وأنا أبكي، واتجهت لغرفتي لأجدها أمامي تجلس على الكرسي المواجه لسريري! جدتك....

صمتَ مرة أخرى، ولكن صمته هذه المرة لأنه صار يخشى مرضي أنا. علمت هذا حين رجاني ألا أستسلم للمرض ثانية...وكنت قد اعتدت أن ينتاب ملامحي الشحوب كلما ذكر اسم جدتي.

- أكمل يا جدي لقد وعدتك أنني لن أمرض هذه المرة، لقد سمعت الجزء الأسوأ من الرواية.. أكمل.

عاد جدي للكلام مرة أخرى وقال:

- لقد توقعت أنها أتت تعاتبني على ضرب ولدها، ولكنني وجدتها وقد أتت تعاتبني لصمتي عن علاقة (بسمة) و(جمال) حتى هذه اللحظة.
- ماذا ..؟!

ولكنها كانت تحب خطيبة أبي رحمها الله.. أنا لا أعلم سوى أن اسمها (بسمة) وقد توفيت أثناء الخطبة، لقد أخبرني أبي أن الجميع أحبها عداك وعدا والدك. أنا لا أعلم ما هو أكثر....

- الآن ستعلمين يا (سُلاف).. دعيني أخبرك ولا تنفعلي رجاءً.

أشرت له برأسي في إيحاء بالموافقة وتركته يسترسل...

- لقد جاءت يا ابنتي كي تخبرني بصدمتها فيَّ لأنني سأسمح بأن يتزوج ولدي من حثالة مثل (بسمة) وأنها كانت تُجاري ولدها في علاقته بها حتى أتصرف أنا.

خاصة بعد أن علمت من أبي الحاج (حسين) أننا نخطط لتزويج الفتيين من ابنتي السيد (فاضل).

- أتعني أن ...؟!
- نعم يا ابنتي جدتك هي من اتفقت معي على طريقة للنخلص من (بسمة)! أنتِ لا تعلمين كيف ماتت الفتاة صحيح؟! كنت أبكي لا شعوريا وأنظر له في صدمة.. حتى جاءني رده القاتل. لقد ذُبحت يا ابنتي! فعلتها (كوثر القاضي) -التي سمعتِ باسمها في الغرفة يوم زفافك- بعد أن اتفقت مع جدتك على ألا تُخرج الفتاة حية من بيتها.
- هذا يعني أن جدتي خائنة، قاتلة، وهي المتسبب الرئيسي في كل ما حدث لنا حتى الآن.
- نعم .. يا ابنتي!
- أكمل.
- (سُلاف) أرجوكِ لا تفعلي هذا بنفسك، وجهك أصفر وأنا أخشى عليكِ أن...

ساعتها انفجرت فيه وأنا أردد:

- علام خشيتك أيها الرجل؟ أجبني؟ أتخشى عليَّ المرض حقا؟ إنك لم تخش خالقك، وأنجبت ولدا وفتاة من حرام، وتسببت في قتل

نفسٍ بريئة لا ذنب لها سوى أنها أحبت ابنك، ماذا تبقى من إثم لم تقترفه؟! هيا أخبرني بكل شيء فورا..

نظراته المكسورة صوبي أوجعت قلبي.. لقد جعلتني أرى نفسي وقد أصبحت في هذه اللحظة وحشا مفترسا تماما مثل أبي. وكأن وعودي له منذ لحظات قد تبخرت، و بدأت في محاولة استجماع نفسي وأنا أردد..

- أعتذر أنا لم أقصد ولكن ما تخبرني به الآن لا يُحتمل.

أمسك بيديَّ قائلا...

- أعلم يا صغيرتي أعلم أنا آسف ونادم.. ولا أعلم ماذا أفعل؟
- أكمِل الحكاية ووقتها سأخبرك بما تفعله.
- حسنا يا ابنتي.. في الليلة التي أتتني فيها جدتك (نادية) خفية من وراء الجميع أخبرتني أنها تعلم عن علاقتي ب (كوثر القاضي)، ولكن أقسم لكِ أنني كنت سأتزوج هذه المرأة فعلا فقد رأيتها مناسبة لي.. أرملة في نفس عمري، ذات حسب ونسب، ووحيدة لا تملك أحدا في الدنيا سوى خادمتيها المطيعتين (هالة وهدى) وهما لا تعصيان لها أمرا. كانت امرأة مثالية لرجل في نفس ظروفي... بدأت أنجذب إليها في توقيت كنت أحاول فيه الهرب مما اقترفته في ماضيَّ الشائن، فما كان مني إلا زدت الوضع سوءا

على سوء. ولا أعلم كيف علمت جدتك بعلاقتنا فصارت تهددني بأنها ستخبر(جمال) بكل شيء إن لم أفعل ما تريد.

- هذا ليس بتهديد يمكن تصديقه.. كيف تفضح نفسها أمام ولدها؟!
- بل يمكن يا (سُلاف) .. فهي لم تكن تهددني بأنها ستخبره الحقيقة.
- ماذا تعني يا جدي؟
- لقد هددتني أنها ستخبره بأنني اعتديت عليها عنوة، وخشيت هي من افتضاح أمرها بين الناس فصمتت رغما عنها.

لطمت على وجهي هذه المرة ..لم أتخيل قذارة جدتي! تأتي الفاحشة ثم تدّعي –زورًا وبهتانًا– على من شاركها إياها بالرضا أنه اعتداء؟!

يا إلهي ليتني مِتُّ قبل أن أسمع هذا؟!

استجمعت نفسي ثانية وأنا أردد له..

- ثم... ماذا كانت خطتها؟!
- أن أخبر أبي وأقنعه بإتمام خطبة (بسمة) و(جمال) صوريا.. وبعدها سيلتحق الفتيان بكلية الشرطة، وخلال وقت قصير أعطى أمرا لـ (كوثر) باختطاف الفتاة داخل منزلها لمساومتها على مبلغ مالي تترك على إثره البلدة وترحل مع أخيها دون ترك أي

أثر وراءها.. والله هذا ما فعلته وارتضيته، لم أكن أعلم أن الفتاة ستضار بسببي. لم أعلم أنها قد اتفقت مع (كوثر) على قتل الفتاة في كلتا الحالتين، لم أعلم والله، ولم آمرها بقتل فتاة صغيرة، لقد قتلتها (كوثر) بالاتفاق مع (نادية) ولهذا انصرفت عنها ولم أتزوجها، والآن فوجئت أن لي ابنة منها! يا ربي ماذا أصنع.. ذنوبي تغطيني وتثقل كاهلي، وإن يكن ذنبٌ فعفوك أوسعُ!

لم أبكِ هذه المرة.. ظل جدي هو من يبكي وينوح أمامي بينما أنا صامتة، ولم يخرجني من تيهي سوى صرخات ابنتي المتعالية في غرفتها.

***

الزمان: الثالث من يونيو ٢٠٢٣
المكان: مكتب أحمد الذهبي للمحاماة.. مدينة القاهرة.

أجلس مع (يوسف) داخل مكتبي نرتشف الشاي صامتين، ونفكر فيما أخبرته عنه جراء مقابلتي مع (عائشة داود). الآن تأكد كلانا من هوية القاتل ودوافعه القوية وعلى أساس هذا تبقى أمامنا معضلتان كبيرتان وهما:

أولاهما، كيف نثبت صحة إدعائنا هذا؟

وثانيهما، كيف نخبر (كمال كاظم) وزوجته وزوج ابنته بحقيقة استنتاجاتنا؟!

ساعدنا يا الله...

كان هذا هو محور الحديث الذي من المفترض أن يدور بيننا، ولكن بدلا من أن أسأل (يوسف) ماذا نفعل، وجهت إليه السؤال الآتي:

- لماذا لم تخبرني بأنك كنت على علاقة بـ (جميلة) رحمها الله؟

انسكب فنجان الشاي من بين يديه لحظة تلقيه كلماتي.. ثم نظر إلي بوجهه الشاحب الهزيل ولم يجب!

- هيا يا (يوسف) أجبني لماذا؟
- لأنها لم تكن ترغب في إعلان الأمر يا (أحمد)، كانت تتخوف من فكرة الارتباط أثناء تحضيرها للدراسات العليا، كما أن خط الأزياء الذي افتتحته كان في بدايته! وكنت قد اتفقت مع والدها على أن يسمح لنا بالتلاقي في حضرته والتعرف إلى بعضنا البعض في منزل العائلة ريثما تُعلن خطبتنا الرسمية، كما أن جدها رحمه الله كان على علم بذلك.
- وكذلك أخي وزوجته وأبي وأمي و(سُلاف) أيها الأحمق!
- ماذا؟! كل هؤلاء علموا بالأمر؟!
- نعم! وأنا وحدي من بقيت دون علم بسبب سفري فأنا لم أعد إلا بعد وفاتهم كما تعلم لظروف الوباء العالمية حينها.
- إذا لماذا طلبَتْ (جميلة) مني أن نبقي على الأمر سرا؟
- فعلَت هذا حتى تتأكد أنت أولا من قرارك ويتيقن كلاكما من عواطف الآخر.. هذا كان مقصدها من أمر الإعلان، فالفتيات عندنا لا يرتبطن دون معرفة العائلة كلها بالأمر، رغم الفرقة التي نبدو عليها إلا أن حالات الزواج لا تتم دون مشورة الكبار ومباركتهم.

نظر (يوسف) للأرض وهو يبتسم في حزن ثم أكمل:

- كنت أظن طيلة ذلك الوقت أن الأمر كان سرنا الصغير..بينما كان كل من حولي يعلمون! أتعلم أنني اضطررت لإخفاء مشاعري حينما رأيتها ذبيحةً أمام ناظري، ودمها يسيل أنهارا في طُرقات الحي الصامت. أنا أول من وصل للموقع ساعة أخبروني بالعثورعلى جثة فتاة ملقاة تحت الأمطار في نفس موقع مقتل السيدات الأخريات. هرعت إلى المكان جريا تحت الأمطار، ولما رأيتها أمامي مسجاةً، لم تحملني قدماي فسقطت على ركبتيّ من هول ما أبصرتْ! ولأول مرة في عمري كله استطعت أن أمسك بيديها، فقد كانت تأبى ذلك –حياءً وتُقى– في حياتها. كانت فتاة نقية بريئة..اسمها (جميلة) وهي اسمٌ وافقَ مُسمى. ولم يمضِ وقت طويل حتى أتى أخوك وابن عمك، وفقدت أنا مع صرخات (سليم) شعوري بالزمن..ولكن كان يجب عليّ النهوض مرة أخرى.. فأنا الضابط المسئول. أتدري أكثر ما يحرق قلبي الآن، أنه كان للجميع القدرة على إظهار مشاعرهم تجاه الفقد، بينما كان عليّ أنا أن أدفن مشاعري أكثر. والأنكى والأشد إيلامًا أن القاتل كان أمام عيني طيلة الوقت ولا أدري من هو! ثلاث سنوات طوال أمضيتها وأنا أردد في نفسي ذات السؤال: ماذا لو علمت؟..ربما لكان الجميع بخير الآن... والآن تأتي أنت لتخبرني أن الجميع كان على علم

بعلاقتنا.. وما ظننته سرا لم يكن. ألهذا قربني أخوك منه؟ لأنني أذكره بطيف ابنة أخيه الراحلة أليس كذلك يا (أحمد)؟!

- لا أدري يا (يوسف)! لم أعد على يقين من شيء، لكنى أستطيع أن أفهم مشاعرك جيدا. أنا أيضا ودَّعتُ مشاعري يوم أن ودعت (منال) إلى مثواها الأخير، وأنا أيضا أسائل نفسي ماذا لو؟ ولكن الأمر انتهى الآن ولم يعد هناك مجال للعودة بالزمن.
- من أين علمت بأمري وأمر (جميلة) إذن؟
- (سُلاف) أخبرتني يا (يوسف). يمكنني القول الآن بأن نواة صداقة حقيقية قد نبتت مع (يوسف) منذ تلك اللحظة، لحظة الاعتراف بالفقد.

لم نسترسل في الحديث أكثر من هذا في ذلك اليوم.. كان الألم قد بلغ منا مداه وغلبت علينا الشجون.. عدت للبيت وحدي كجندي قد عاد لتوه من ساحة الهزيمة.. لم أعد راغبًا في معرفة المزيد! كيف يمكن للمرء أن يحيا بعد أن يعلم حقيقة أمه غير المشرفة؟! أمه التي كانت في مخيلته كالقديسة، صارت الآن تترآى لعينيه كشيطانة. ورغم كل هذا وددت لو أنني احتضنتها، علَّ ألمي أن يخفت قليلا.. قادتني قدماي لغرفة والديّ ..على عتبة بابهما تحدثني نفسي بالاستئذان عليهما مخبرا كليهما بما يحزنني ويثقل كاهلي...ولكن أنَّى لي ما أتمنى!! أبكي وأرتجف وأسأل نفسي عن جدوى وقيمة الأهل في حياتنا؟

إن لم يستطع المرء أن يُصارح أبويه بأن قلبه محطم، فكيف يمكن أن يكونا أبويه حقا؟!

وبدلا من أن أطرق باب أبويَّ.. انعطفت ناحية غرفة أخي (جمال) الغرفة التي ظل بابها مفتوحا أمامي طيلة ثلاثين عاما. أفتح الخزانة وأسحب إحدى قمصان أخي..أبدأ في تشممها واحتضانها كما كانت تفعل (غادة) رحمها الله، أسقط على سريره، نحيبي يزداد وبكائي يتعالى صوته، ولكن (جمال) لا يعود مرة أخرى ليهدئني كما اعتدت منه طيلة عمري. وساعتها أدركت ما لم أفطن إليه طوال عمري! فأنا لم أكن أفتقد أخي.. بل أبي!

وعليّ منذ الآن أن أواجه الحقائق وحدي، ظهري كُسر وصرتُ بلا سند، ولم يعد أمامي من مهرب أو مفر....

***

(دفترسُلاف)

الحقيقة السادسة

خُذلت بأيدي أحبابي

ونُصرت بيدي

فما حاجتي الآن

لأياديهم التي بتروها من أجلي؟!

الزمان: ديسمبر ٢٠٢٠
المكان: بيتي أنا و (رامي).. مدينة القاهرة

مضى على ولادة ابنتي خمسة أشهر تقريبا، أصابني فيهم أعتى أنواع الاكتئاب، ولكن هذه المرة كان الأمر مبررا ؟لأن الأطباء أخبروا أبي أنني أعاني اكتئاب ما بعد الولادة وكنت سعيدة بذلك المبرر، ربما لأنه ساعدني في مصالحة أبي بعد ما دار بيننا في بيتي. وما إن أنهى جدي (عادل) سلسلة اعترافاته المؤلمة وانقطعت زياراته لبيتي، حتى داخلني الإحساس بأن القادم سيكون أسوأ بكثير..

أذكر أنني انتظرت عودة (رامي) من عمله وبعد أن رأى حالي وحكيت له عما حدث مع أبي، حتى استأذنته في مغادرة البيت تاركة (كرمة) معه، وذهبت إلى مقر عمل أبي بمديرية أمن القاهرة.. وهناك طلبت لقاءه لأمر عاجل. فزع أبي لما رآني، فقد ظن في البداية أن هناك مكروها ما قد وقع لي أو لابنتي الصغيرة، إلا أنني طمأنته وطلبت منه أن يستمع حديثي حتى نهايته....

- أبي أنا أحبك وأقدرك كثيرا. لم أبجل أحدا قدر تبجيلي لك أقسم لك أن هذه هي الحقيقة. أتعلم حينما آلمني قلبي وشعرت بأن

الموت قريب لم أفكر في أحد سواك لحظتها، كل ما سيطر عليّ وقتها أنني أريد رؤيتك وتوديعك للمرة الأخيرة. أنت كيانٌ لا يُمس في وعيي وضميري، لا أحد يجرؤ على الاقتراب من مكانتك لدي..أريدك أن تعلم هذا. اغفر لي ما حدث اليوم لقد أخطأت خطأً لا يغتفر، وأعلم أنني تجاوزت حدي، ولكن جدي (عادل) شيخٌ هَرِم وجاء خصيصا لزيارتي وزيارة ابنتي. عندما رأيتك تهينه كل ما دار ببالي هو كيف أوقف هذا ؟! لم أستطع أن أدعه يرحل كاسف البال حزينا، أشفقت عليه كما أشفقت عليك أيضا أن تفعل هذا بعمك وأنت أكثر الناس حنوا وعطفًا. سامحني يا أبي أرجوك ولا تخاصمني.. أنا وحيدة وتائهة وأريد أبي بجانبي، لا تتركني بمفردي في مواجهة مع الألم أرجوك.

حينها، رأيت دمعاتٍ تتحدر على وجنة أبي! كل ما أذكره عن هذا اللقاء المؤثر هو أنني بكيت كثيرا وأن أبي قد بلغ به التأثر حدا جعله هو من يعتذر لي عما حدث ببيتى!

وحين هدأت نفسي اصطحبني أبي وأوصلني إلى بيتي وتركني في عهدة (رامي) الذي كان بانتظاري ترتسم على ملامحه علامات القلق الشديدة.. ولكني طمأنته بأنني بخير وكل ما أريده هو أن أنام عميقًا لتهدأ نفسي. ربت على كتفي وأودعني سريري تاركًا إياي لأغفو حيث عالم الأحلام.

العالم الذي سأرى فيه الحقيقة رغم أنفى .. الحقيقة التي سأراها كما رواها (عادل الذهبي)، حقيقة تظهر فيها جدتي وهي شابة في الأربعينات تذهب صوب بيت السيدة (كوثر القاضي) لتخبرها نصا بأنها على دراية بعلاقتها الآثمة مع عم ولدها، وأنها ستفضح أمرها إذا لم تستمع إليها جيدا.

أتخيل السيدة الأرملة وهي ترتعد مكانها ثم تحاول السيطرة على نفسها مطلقة سيلا من التهديد والوعيد، حتى إذا ما انتهت السيدة أخبرتها جدتي بأن (عادل الذهبي) سيأتي إليها اليوم آمرا إياها باستدراج خطيبة ابن أخيه (بسمة) ثم اختطافها ومساومتها على ترك البيت مقابل تلقيها مبلغًا كبيرا من المال لها ولأخيها، وإما أن تقتل.

وما إن تنتهي جدتي من حياكة خطتها الأولى حتى تتبعها بالثانية.. فتخبر (كوثر) نصا بأن هذا ما سيقوله (عادل) فقط، وطبعا سيخبرك بأن تهديد القتل مجرد ترويع للفتاة وليس ما سيحدث حقا.. ولكنني هنا لأخبرك بالجزء السيىء في الحكاية.

- أريدك أن تقتلي الفتاة في الحالتين لأن ولدي لن يقتنع، وسيعثر عليها –لا محال– إن هي قبلت بالعرض وغادرت تاركة كل شيء وراءها. وإن حدث أي تغيير فيما آمرك به، ستكونين أنتِ من يفتضح أمرها في مدينة صعيدية ذات تقاليد لن ترضى بأقل من قتلك جزاء سلوكك الشائن، لا اختيار أمامك يا (كوثر) إما

أن تَقتلي أو تُقتلي! وإن حدث وأخبرتِ (عادل) بذاك الجزء من الخطة فلا تلومين إلا نفسك.

أرى جدتي أمامي وهي تنطق بكل تلك الجرائم، أشاهدها تتحدث في حلمي كما لو أنني أشاهد عملا مسرحيا.

أتصور فيما بعد هذه السيدة وهي تنفذ ما أُمرت به خشية افتضاح أمرها، أتخيلها تتحين فرصة سفر أبي وعمي إلى حيث يدرسان بأكاديمية الشرطة، ثم تستدرج الفتاة من بعدها، أراها تساومها فتأبي.. أشاهد بعدها رحلة هروب الفتاة من بيت (كوثر) أراها تهرول تحت زخات المطر مسرعة الخطى، حتى تتعثر قدماها لتسقط في الوحل ثم تعاود النهوض وتحاول الهرب من جديد. أتخيل خادمات (كوثر) يطاردنها، تصرخ الفتاة وما من مجيب حتى إذا ما سقطت في براثن السيدتين أتت مولاتها وهي تخبيء سكينا حادة النصل وتعرض عليها إما الهرب مع المال وإما الموت، تأبى حبيبة أبي المغادرة، وتختار الثانية وهي التي لا تعلم أي مصير تعسٍ ينتظرها! فكلا الخيارين طريق للموت المحقق، وما إن تختار الثانية حتى يُجز عنقها بنصل سكين بارد ينتزع منه في لحظتها لتُترك بعدها ملقاة في الوحل تنزف دماءها حتى تصير خليطا يتداخل مع تراب الأرض وماء السماء.

يشهد الحي الجريمة ويصمت!. مثلما شاهدت أنا وعرفت كل شيء واخترت الصمت مثلهم... تحتضر الفتاة المسكينة، بينما أبي يهرول في

طرقات المدينة بحثا عنها بعدما سمع من رجال الشرطة بنبأ ذبح فتاة تتشابه في مواصفاتها مع خطيبته المفقودة.

أرى أبي يجري تحت الأمطار ومن إن يصل إليها حتى يسقط على قدميه، وبينما يهم لاحتضانها أرى ملامحي ترتسم على وجه الفتاة، وكأنها صارت أنا، وأبي أمامي يحتضن الجثمان ويصرخ باسمي راجيا إياي أن أعود. ورغم أنني صرت جثة هامدة إلا أن عيوني المفتوحة ترى جدتي تقف مبتسمة في إحدى الأركان، ومن وراءها تظهر (بسمة) ثانية وهي تبكي...

أستيقظ صارخة من حلمي على خاطر وحيد يحتل فكري..الخوف من ذات المصير! مضى أكثر من يوم وحالتي تزداد سوءا..الاكتئاب تمكن مني تماما وصار طبيبي المعالج يحذر أبي من احتمالية انتحاري.

صحيح أن إيماني بالله يعصمني فضلًا عن أن خشيتي على أبي من بعدي يمنعاني من الإقدام على فعلٍ كهذا، ولكن عائلتي لم تكن تدرك هذا.. ورأيت فجأة كيف تحول أفراد أسرتي لرقباء أكثر منهم داعمين... وما ساعد هذه المرة في انتفاء الشبهات عن جدي (عادل) كان تأكيدات الطبيب بأن ما بي هو اكتئاب ما بعد الولادة، لم أعد قادرة على فعل شيء.. حتى الاستحمام والاهتمام بالنظافة الشخصية صارعبئا علي ولولا أن أمي كانت تعتني بي طيلة الوقت ربما ما كنت لأقلم أظافري! كانت رعايتها الدائمة لي تُظهرني في أبهى حُلة طيلة الوقت، وإن كان خارجيا فقط .

في هذه الأثناء حاولت أسرتي إقناعي بضرورة تناول أدوية لعلاجي مما أنا فيه ولكني رفضت ذلك كيلا أتوقف عن الرضاعة الطبيعية لابنتي.. كانت ابنتي هي المحفز لي لاستعادة نفسي والنهوض مرة أخرى. لذلك بدأت في مرحلة العلاج السلوكي وبالطبع لم أقدر على الاعتراف بأسباب اكتئابي الحقيقية، ولكن الكلام بشكل عام ساعدني على تجاوز المرارات أو ربما تناسيها. ولكني في المقابل توقفت عن كل شيء.. العمل، الحياة، والأسوأ الشعور.

صار الجميع مقتنعا بأنني وقعت في براثن اكتئاب شرس لا يرحم، وصفه الطبيب بأنه رافقني منذ طفولتي، إلا أن أعراضه قد ظهرت عليّ حينما توافرت لها الظروف المناسبة.. وهي الولادة. ولكنني كنت أعلم أنه تشخيص خاطيء، أنا الطفلة المرفهة، المحبوبة من جميع أفراد أسرتي، الناجحة عمليا، تزوجت من رجل أحبه، وأنجبت فتاة جميلة، كما أنني طبيبة و كاتبة شهيرة فما عساه يزعجني الآن؟!

صحيح أن الاكتئاب لا يأتي لمن يتجرعون الألم وحدهم، وأنه مرض كسواه ويحتاج إلى علاج. ولكن ما أقصده أنني لم أعانِ مما يعتقده الآخرون، بل عانيت من صدمة عصبية قادني إليها ماضي أسرتي الأليم.

والنتيجة هي كالتالي..

زيارات متكررة من الجميع أبي، أمي، جدي (يوسف)، جدتي (نادية)، جدي (عادل)، عمي (سليم)، وابنة عمي (جميلة).. أما عمي (أحمد) فكان مبتعثا خارج البلاد هذه الفترة وقد طلبت منهم ألا يخبروه بحقيقة ما يحدث لي.. ولكن الروابط القوية بيننا جعلته يشعر بوجود خطب ما طيلة الوقت. وبينما أبدأ رحلة التعافي فوجئت بحديث (ماهيتاب) معي ذات مساء...

- كل هذا من تحت رأس جدتك أليس كذلك؟

صُعقت من قولها هذا وتسمرت في مكاني أنظر إليها دون أن أنطق!

لحظات مرت عليّ كالدهر، أيعقل أنها تعلم ما أجاهد في إخفائه؟!

إلا أنني استجمعت شجاعتي وسألتها ..

- ماذا تقصدين؟!
- لا أقصد شيئا بعينه يا (سُلاف)، ولكنكِ لم تعودي لطبيعتك منذ يوم زفافك.. تحديدا من لحظة كسر كِردانك وصعودك لغرفتك لإصلاح زينتك في بيت أبيكِ. يومها رأيت عينيكِ.. وعلمت أنكِ لستِ صديقتي التي أعهدها، خاصة وأنني كنت قد لمحت جدتك تدخل للبيت بصحبة أخي جدك، وشاهدتها وهي تغادر قبلك، وتعجبت إذ رأيت عودتك من الباب الخلفي للقصر! هل أسمعاكِ ما أساءك؟

رغم رعبي الشديد من اكتشاف صديقتي المقربة لأولى خيوط الحقيقة إلا أنني تمنيت ساعتها لو أنني تخففت مما يجثم على صدري وأخبرتها بكل ما حدث. قد تزامن هذا مع انقطاعي عن جلسات العلاج السلوكي، والتي لم تأت بثمارها المرجوة، إذ أن الفضفضة الحرة ومصارحة الطبيب كانت الشرط –المستحيل– لنوال الراحة، وهذا هو ما لم أستطع إليه سبيلا! كما أنني خشيت الإفصاح لزوجي (رامي) أيضا، حتى وصل الأمر لتباعدنا كل منا في غرفته، طيلة الوقت كان يخالط نفسي شعور بالذنب جعلني أشفق على (رامي) من اضطرابي واعتلال مزاجي..

ويبدو أن دوامة أفكاري قد أخذتني بعيدا، فلم أنتبه إلا على قولها:

- لا أحاول استنطاقك بما لا تودين البوح به يا (سُلاف).. كل ما هنالك أنني أردت أن أعلمكِ أنك لست وحدك، أنا أيضا أعاني بسبب جدتي، ولكن لا أعتقد أن جدتي تشبه جدتك في شيء، فشر (عائشة داود) لا مثيل له.

بدأت أعي مقصد (ماهيتاب) منذ البداية.. لقد استشعرت وقوع شيء بيني وبين جدتي، لأن علاقتها بجدتها كانت تشهد تصدعًا في تلك الفترة، هذا فضلا عن أن الناس يرون الآخرين بمرآة أنفسهم، فتراهم دائما يُسقطون مشاعرهم على من حولهم..هذا بالإضافة إلى أن ماهيتاب اعتادت أن تربط أمورنا معا دائما، وكانت محقة في هذا، فقد كنا شبيهتين

متقاربتين في الصفات والأفكار وكانت بيننا أخوة صادقة وعِشرة طيبة تشاركنا فيها الأحلام والأماني.. كنت أعتبرها أختي التي لم تلدها أمي..

كان وجود (ماهيتاب) في حياتي يطمئنني أن أمور كلتينا ستصير إلى خير، إلا أنه ورغم كل المتشابهات بيننا لم يخطر ببالي يوما أن يكون تشابهنا للحد الذي يتوحد فيه عند كلتينا مصدر الإيذاء أيضا!... جدتنا لأبينا. ودون أن أدري وجدتني أنصرف عن ألمي وأعيش مع صديقتي ألمها الخاص، ومن هنا كانت بداية الحقيقة السادسة....

أخبرتني (ماهيتاب) أن جدتها لأبيها تخطط للاستيلاء على أموال جدها بتلاعبها بأنواع الأدوية الخاصة به! كانت تقتله بالبطيء ليبدو الأمر كما لو أنه قضاء وقدر.. ومما زاد الأمر سوءا هو تأخرها في اكتشاف ما حدث مما ترتب عليه تدهور صحة جدها ونقله للمشفى.

وفي إحدى الليالي التي أخبرت فيها العائلة بأنها لن تترك جدها وحده وستبيت معه داخل إحدى المراكز العلاجية، طلب منها جدها أن تعود للبيت لإحضار بعض الأوراق الهامة من غرفته، وهناك سمعت جدتها تحادث عبر الهاتف شخصا ما، يبدو أنه صيدلي، كانت تخبره أن أمر (رشيد) قد طال كثيرا وأنها لم تكن تتصور أنه قوي لهذه الدرجة!

فكيف لا يموت بعد كل ما أعطته من أدوية خاطئة!!

وصفت لي صديقتي في حسرة مشاعرها عند سماع حديث جدتها، وكأنها تذكرني بما حدث معي تماما. ولأنها كانت تتحلى بجرأة تنقصني، فما إن استعادت نفسها حتى اقتحمت الغرفة على جدتها وأخذت منها الهاتف وأغلقته كلية ووقفت قبالة جدتها تهزها في عنف لتخبرها عن نوع الأدوية السامة التي جرَّعتها لزوجها الطيب.

قالت لي نصا أنه كان قد أُغلق عليها كلية، وربما لو لم تذعن لها جدتها وتخبرها بما أرادت سماعه، لكانت قد أجهزت عليها فعليا. وأنا أصدق روايتها للأمر.. فطوال سنوات صداقتنا، استطعت رؤية جوهر العلاقة الحقيقية بينها وبين أفراد أسرتها وكان أحب الناس إليها فيهم هو جدها السيد (رشيد كاظم)، كان يدللها مثلما يدللني أبي لم يرزقه الله بحفيدة غيرها.. حفيدة وحيدة من ابن وحيد، تربت في بيته وعلى يديه. أغدق عليها ماديا ومعنويا كما ساعدها في تحقيق حلمها في مجال الصحافة والإعلام بحكم عمله بها.

كان أبًا وجدا في آن.. وما إن أتت إلى الدنيا حتى تفرغ لها كلية وترك عالم المال والأعمال لابنه وزوجته وتفرغ لدور الجد الحاني.. حسنا لماذا تكرهه زوجته إذن وهو لا يشكل أي نوع من التهديد لها؟!

- هو مجرد صاحب أملاك صوري.. لماذا فعلت ما فعلت؟
- ببساطة لأنها علمت بزواجه يا (سلاف)..وزوجته الآن حامل!

كانت (ماهيتاب) تعلم بزيجة جدها الثانية، لم يكن جدها يخفي عنها سرا، أخبرها بزواجه بغير جدتها لأنه –على حد قول- لا يدري متى يقبض الله روحه، ولا يريد لولده وزوجته الثانية أن يريا السوء من بعده. العجيب في الأمر أن (ماهيتاب) كانت قد أنجبت ولدها (رشيد) آنذاك!

لا أدري حقا كيف يفكر بعض الكبار؟! كيف يشرع الرجل في مثل هذا العمر في تكوين أسرة جديدة، بينما حفيدته قد صارت أما فعلية!!

ورغم دهشتي الكبيرة مما روته لي صديقتي إلا أن دهشتي الأكبر كانت في تفهمها لما يفعله جدها، بل ورضاها عنه! فالوحدة قد أكلت روحه على حد تعبيرها كما أن جدتها لم تكن شريكة حياة بما تعنيه الكلمة من معنى، إذ كان مناط سعيها كله في هذه الدنيا وراء المال والجاه، وما إن علمت بزيجته من أخرى حتى طار عقلها وبدأت خطة قتله الممنهجة، فهي لن تسمح بوجود زوجة وولد يقاسماها هي وولدها غنيمة العمر كله.

لم أعلم ماذا أقول لها.. احتضنت كل منا الأخرى وهي تبكي نفسها. صحيح أن الخطر توقف فعليا بعد أن هددت (ماهيتاب) جدتها بأنها ستلقي بها في السجن إذا ما حاولت التعرض لجدها ثانية، إلا أن ما عاينته من فعل الغدر قد أدمى قلبها.. وقلبي معها.

كنت قد توصلت هذه الليلة النكراء إلى قناعاتٍ محددة:

أنا لا أقدر على الكتمان أكثر من ذلك، كما أنني لا أقدر على البوح أيضا.

لهذا سأفرغ ألمي فوق الأوراق وأسطرها بقلم حبر أسود يلائم فداحة هذا الألم، وكلي رجاء ألا يجده أبي أبدا ذات يوم.

وإن كنت أعلم أنه سيُقرأ من أحدهم لا محالة، ولكن ما العمل فلو لم أفعل لِمتُّ كمدا.

لذلك ها أنا أكتب الآن، وليتني ما فعلت ..

***

الزمان: يونيو ٢٠٢٣
المكان: منزل عائلة الذهبي.. مدينة القاهرة.

ليس هناك ما هو أقبح من النسيان. أن يبتعد عنك الآخرون فهذا محتمل، أن تُقطع بينكم سبل التواصل فهذا وارد، ولكن أن ينسوك؟ أن تسقط ذات نهار من ذاكرة أحبابك، ولا تعود إليها أبدا لتصير الذكرى جمرة مشتعلة يحملها قلبك، فذاك هو القبح الحقيقي.

الموت والفراق يمكن تحملهما إن بقيت الذكرى.. ولكن إن رحلت الذكرى وحل النسيان فما معنى الحياة حينها؟

نحن أحياء في قلوب الآخرين مادامت ذكرانا حية داخلهم.. فإن رحلت الذكرى رحلنا معها. ولأنني لا أطيق حمل ذكرى خيانة أمي الكبيرة لعائلتنا، سألجأ إلى أن أسقطها تماما من ذاكرة روحي... ومع كل أسف يمكنني الآن البوح بحقيقة واحدة، أنا أعمل الآن على نسيان حقيقة أمي!

... وبرغم كل ما أكابده من ألم.. إلا أنني أحمد الله على هذه الآلام، فبسببها صارت أمي تعتزل الدنيا وما فيها، فباتت لا تغادر غرفتها

وكذلك فعل أبي. لا أراهما إلا للحظات عابرة في اليوم أحاول خلالها أن أضبط زمام نفسي، خاصة أمام أبي، فلا أريد أن أفجعه بحقيقة زوجته النكراء في آخر عمره. لذلك وضعت همي كله في شيئين لا ثالث لهما.. العمل و(كرمة)، وفي رفقة حفيدة أخي الغالية وجدت صحبة جديدة صارت تهون علي كثيرا...

صُحبة (فيروز نور الدين)...

الفتاة التي اجتمع لها من رقة القلب ولين الطبع ما يسع العالم كله ويفيض، أو هكذا كنت أراها أنا. صار يومي يبدأ بسماع صوتها وينتهي بسماعه أيضا، والأهم من هذا هو تحسن حال (كرمة)، وكأن الله قد حرمها أمها ليمنحها أما أخرى.

لم تكن (فيروز) تتعامل مع الصغيرة مثل المربيات بل كانت تدللها كما لو أنها ابنة لها، أولا تصورت أنها تفعل هذا أمامي كي تطمئنني أنها جديرة بالعمل لدينا.. لكن بمرور الأيام اكتشفت أنها تتحول لأم بالتدريج أكثر منها مربية تؤدي وظيفة، والأهم أنها تحولت لبلسم يومي شافٍ يمحو عني –برفقٍ– آثار خديعة الأهل وينسيني فراق الأحباب.

وبما أنني تفرغت كلية لدراسة قضية مقتل (ماهيتاب كاظم)، فلم أكن أمارس أي نشاط تقريبا خارج غرفة مكتبي، وأثناء هذا كنت أحرص على إبقاء (كرمة) بجانبي.. وترتب على هذا جلوس (فيروز) معنا.

.. هكذا ودون أن أدري كيف صارت مربية (كرمة) مشروع حبيبة جديدة.. كانت حبيبتي الأولى تنهار على صعيد آخر. انهيار سيشطر قلبي نصفين، قلبي الذي ظن أنه جفاها.. وإلى الآن لا أدري كيف لم أدرك أن أمي تحتضر أمامي وأنا غير مدرك لهذا؟!

أكان يجب علي أن أراها ترتطم بباب غرفتي حتى أشعر بحقيقة مشاعري تجاهها؟

كل ما أنا متيقن منه الآن أنني كنت أبتعد عنها عامدا متعمدا.. أتعلل بحجة العمل ورعاية (كرمة) وكانت هي أيضا تحتمي بالفكرة. فقد أقنعت ذاتها بأنني مشغول فعلا، رغم أن رعايتي لأبي كانت تزداد مقارنة بحجم رعايتي لها التي تتضاءل، وبرغم ملاحظتها لاهتمامي الزائد بمربية حفيدتها التي لم تدخل لحياتنا سوى من شهر واحد تقريبا، إلا أنها تغافلت عن كل هذا وصارت تحاول الاقتراب مني أكثر، بينما أنا أجافيها أكثر وأكثر.

وفي إحدى ليالي شهر يونيو وبينما أعمل وحيدا حتى ساعة متأخرة في غرفتي أقرأ صفحات دفتر (سُلاف) الملعونة غلبني النعاس، وأعلنت جفوني استسلامها للنوم لعشر دقائق تقريبا، عشر دقائق كانوا كفيلين بوقوع الكارثة..

كارثة أن يقرأ أحد غيري صفحات هذا الدفتر!

كارثة لم أتفهم مداها إلا حينما استيقظت من نومي على صوت ارتطام قوي لجسد بشري..

وهناك بجانب باب الغرفة وبينما يحاول عقلي الإفاقة من غفوته القصيرة، وجدت أمي فاقدة للوعي.. وبين أصابعها المرتعشة يرقد دفتر (سُلاف) مفتوحا!

(دفترسُلاف)

الحقيقة السابعة

قلبي مقبرة

يشغل حيزها

الأحياء

قبل الأموات.

الزمان: ديسمبر ٢٠٢٠
المكان: منزل عائلة الذهبي.. مدينة القاهرة.

يبدو أن فكرة الدفتر كانت جيدة لدرجة جعلتني أتحسن سريعا، وكأنني أفرغت كل شيء داخلي بواسطة قلم حبر ودفتر ... يا الله هل يمكن للكتابة أن تنقذ إنسانا حقا؟!

حسنا الإجابة هي نعم، لقد تعافيت من آثار صدمتي حتى أنني عاودت الحضور لجلسات العلاج النفسي السلوكي، وبدأت في تقبل عدم مسئوليتي عما حدث لي، في النهاية أبي ذاته ليس مسئولا عن خيانة أبويه..فما بالي أنا أحمل إثم الأجداد فوق رأسي في كل زمان ومكان؟

لا يمكنني القول أنني شفيت تماما، ولكني تقبلت ما حدث لي.. من المؤكد أن هناك حكمة ما في كل ما حدث وما سيحدث، سواء كان لي أو لغيري، وأيا ما كانت هذه الحكمة فعليّ تقبلها والرضا عنها لأنها اختبار من الله .. وكل ما يأتي به الله خير وإن ظنناه -بقصر نظرتنا المحدودة- غير ذلك.

هاتفني عمي (أحمد) منذ أيام ليخبرني ببدء تحسن الظروف وانفتاح المجال أمام الرحلات الجوية بعد انحسار الوباء العالمي، الآن صار بإمكانه العودة قريبا من بعثته الدراسية..ومع عودته سيتحسن كل شيء.

حتى علاقتي بجدتي صارت تشهد تطورا ملحوظا، صحيح أنني لم أواجهها بشيء ولكن هذا لا يعني بأن كل شيء قد صار على ما يرام. ففي أعماقي كنت أتحاشاها وأتعمد تجنبها، ولكن حوادث مرضي المتكررة صارت تشفع لي عند من حولي، وبناء عليه لم تؤخذ أغلب تصرفاتي على محمل الجد. فصارت عزلتي المتعمدة مرض، وفُسر تجاهلي لمن حولي على أنه تيه وشتات، وحين جاءت لحظة التعافي بعد الكتابة والتدوين تأكد لدى الجميع أن ما حدث كان نكسة صغيرة ترتب عليها انهياري لفترة من عمر الزمن، إلا أنني عُدت لطبيعتي في نهاية الأمر.

وتصور مثلهم (رامي) أنني تعافيت، وحده جدي (عادل) من كان يفهم حقيقة كل شيء! إلا أن فكرة إرضاء ابنته استحوزت على كل وقته تقريبا... فقد أخبرني أن الفتاة التي اكتشف بنوتها مؤخرا تعامله بنوع من الجفاء، رغم تعهده لها باعترافه بها قريبا أمام الناس إلا أنها تتعامل معه بريبة. وقد حزنت من أجله رغم كل شيء ففي النهاية أنا أرى أمامي رجلا مهزوما تثقله خطاياه التي يحاول التكفير عنها دون جدوى.

أما أكثر ما أحزنني هو رد فعله وقتما عرضت عليه المساعدة في الأمر، فقد كنت على استعداد لمهاتفة الفتاة والتعرف عليها، لاسيما وأنها في حقيقة الأمر عمتي!

وبدلا من أن يفرح باقتراحي فوجئت به يثور في وجهي قائلا بأنني جننت، ولن أرتاح حتى أتسبب له في فضيحة نكراء، أو ربما هذا ما أريده حقا أن يفتضح أمره وأمر جدتي أمام الجميع.

كان هذا رده عليّ ساعة ذهابي لزيارته في محل إقامته بالقاهرة التي صار يتنقل إليها دوريا من أجل اللحاق بابنته. ابنته التي رفض حتى إخباري باسمها، ولحظتها فقط تمكنت من رؤية وجهه الحقيقي، الوجه الذي أشار إليه أبي ولم أفهمه. وترددت في ذهني مقولة أبي الدائمة ..

- من لا يحب الأصل لن يحب الفروع يا ابنتي.

وجاءتني لحظة اليقين التي فهمت فيها حقيقة الرجل، هو كان يسعى لنيل غفراني ولا أكثر! وما إن ناله، حتى تفرغ للبحث عن ابنته التي سيعترف بنسبها قريبا.

أما بالنسبة لي فأنا مجرد عار يريد محوه، وفي نفس الوقت يخشى لقاء الله دون مسامحتي له. ولكن إن منحته عفوي ومسامحتي، فأين حق ابنه المخدوع وأخيه المُغيّب؟!

وتأكدت وقتها من أن مشاعري المتذبذبة في الفترة الأخيرة قد تنامت وتعملقت داخلي بفضل السيد (عادل الذهبي).

أما أشد ما آلم فؤادي..فهو أنه رفض استقبالي بمسكنه بالقاهرة، واكتفى بإهانتي على الباب ثم أغلقه في وجهي بكل هدوء! تماما كما أغلقه في وجه ولده منذ ثمانية وأربعين عاما.

.. لم يفت وقت طويل حتى أدرك جدي (عادل) فداحة ما فعل.. حاول التواصل معي، ترجاني أن أجيبه، بعث لي بالعديد من الرسائل، حاول أن يخبرني خلالها كم يفتقد طيبة قلبي، توسل إليّ ألا أبتعد عنه ثانية فهو يشعر بدنو أجله ولايريد أن يموت وأنا غاضبة منه. حتى أنه أتى لعتبة بيتي في إحدى صباحات أوائل ديسمبر ودق بابي..

كنت وحدي مع ابنتي وكان يعلم هذا، فقد كان يتحاشى الزيارات المتكررة في وجود (رامي) حتى لا يشعر بشيء مما يحدث، إلا أنني لم أفتح له! ليس غضبًا منه، ولا لأنه انفجر في وجهي دون سبب وجيه، ولكن من أجل الوهم الذي أحياني فيه ودُمرت بتبعاته حياتي، بينما هو على صعيد آخر لا يراني كليةً!

ولهذا لم أقدر على مواجهته أبدا، حتى أن فكرة الإمساك بمقبض الباب وفتحه كانت عبئا ثقيلا عليّ لا طاقة لي به، وكان آخر ما ألقاه على مسامعي بعدما يئس من إمكانية التواصل معي...

- (سُلاف) لقد أخبرتك سابقا أنني لا أستحق حفيدة مثلك، لقد أمضيت عمري كله أراقبك من بعيد، طفولتك، صباكِ، شبابك، زيجتك، شغفك بالكتابة، دراستك للطب.. حتى كتبك قرأتها عشرات المرات، قصائدك، مقالاتك، عباراتك الصغيرة وآرائك الناضجة التي كانت تدهشني عند مطالعتها.. ورغم ذنوبي الشديدة فقد أعطاني الله عز وجل فرصة الاعتراف لكِ بكل هذا والاقتراب منكِ على وجه الحقيقة.. وهذا يفوق ما يتمناه رجل آثم مثلي. الوداع يا ابنتي...

لماذا لم أفتح له الباب؟ لماذا لم أخبره أنني سامحته فعليا؟

لماذا لم أغفر له ذلة لسان غير مقصودة، بينما قد غفرت له الأسوأ من قبل؟ لماذا تسمرت في مكاني ولم أفهم ما قاله؟

بل لماذا لم أخبره بمحبتي الشديدة له طيلة عمري وشعوري الدائم بوجود روابط كثيرة بيننا لم أكن أدري سببها حتى لحظة كسر كِرداني؟

قائمة طويلة من التساؤلات تنهش روحي، بينما كنت أبكِ جانب جثته المسجاة، بعدها بأيام قلائل.. ولآخر مرة في حياتي!

***

الزمان: يونيو ٢٠٢٣
المكان: إحدى مستشفيات القاهرة.

أخبرني الطبيب أن أمي أصيبت بسكتة دماغية.. كانت نبرته يائسة والبقية مفهومة.. سيدة في منتصف السبعينيات مرت بكل هذا ونجَت منه.. وهزمها دفتر أسود!

دفتر دونته حفيدتها.. وقرأه ولدها. أبي يقف معي في المشفى مذهولا مما حدث، يسألني عن التفاصيل، عيناه تبحثان عن إجابة وعيناي تخبئانها عنه.

..وفي النهاية توصل كلانا إلى أن هذا نتيجة حتمية لكتمانها كل ما مر عليها، فقد حفيدتها وفقد ولدها وفقد زوجة ابنها التي كانت تعتبرها بمثابة الابنة، وقبله بأعوام فقد الفتى الذي صار ولدا لها بالرضاعة وابنته أيضا، والأسوأ من كل هذا.. فقدي أنا!

بدأ أبي يقص عليّ كيف كانت تبكي طيلة الليالي الماضية وتسِرُّ إليه بشعورها بنفوري منها وعزوفي عن مجالستها.. وأن معي كل الحق في تجنبي إياها ـ وإن كنت مهذبا ـ متحججا بالعمل معظم اليوم، إلا أنها تعلم

حقيقة مشاعري جيدا. بكى أبي وهو يحدثني بكل هذا طالبا مني الدعاء لها بالشفاء، وأن أغفر لها قسوتها تجاهي فيما مضى!

وعدته أن أفعل ما يأمرني به، فكلانا كان يعلم أن ساعاتها قد باتت معدودة في هذه الدنيا. وكذلك كان الأطباء.. ومن أجل هذا لم يمانعوا حين أخبرتهم برغبتي في الجلوس بجانبها، وبهدوء تسللت لداخل غرفة الموت باحثا عن طيف أمي وما تبقى من حقيقتها وحقيقتي معها..

وبعدها انتزعت من حقيبتي الدفتر الذي أخفيته فيها لحظة سقوطها..

لحظة بداية النهاية..

***

الزمان: يونيو ٢٠٢٣
المكان: غرفة العناية المركزة.

لماذا أصيبت أمي بسكتة دماغية؟ ألأنها اكتشفت علم (سُلاف) بكل ما ارتكبته؟ أم بسبب علمي أنا؟!

هل قتلتها الكلمات؟ أكانت تتقبل تسببها في الخراب الذي حل بنا لسنوات طوال، لكنها صارت فجأة غير قادرة على قراءة هذا على الأوراق؟ لا أعلم!

والآن أجلس وحيدا في انتظار موت أمي المحقق كما لمّح لي الأطباء، دون مواجهة، أو كلمات أخيرة، أو حتى نظرة عين تطلب الغفران. لا أريد هذا من أجلي يا الله، بل من أجلها هي، امنحنا لحظة أخيرة كي أتمكن فيها من إخبارها بمحبتي المطلقة رغم كل شيء.. وغفراني لها أيضا.

الآن أفهم لماذا طلبت (سُلاف) في مذكراتها من أبيها أن يغفر إذا ما وقعت في يديه كتاباتها ذات يوم. والآن أدرك جيدا أنني أسابق الوقت، اتصلت ب (فيروز) وطلبت منها إحضار (كرمة) كي ترى أمي للمرة الأخيرة.

لن أتحمل أسئلة أخرى من الصغيرة عن أفراد غائبين، ولكن قبل كل هذا كان علي أن أهاتف (يوسف) .. كي أخبره بدوافع القاتل المؤكدة!

وصلت (فيروز) وعلى ما يبدو أنها لم تقدر على المجيء منفردة فأحضرت معها صديقة والدتها، مدبرة منزلنا الطيبة من أجل وداع أمي الأخير. جاءتا تبكيان، تجران وراءهما حزنهما الكبير وأصابع (كرمة) الصغيرة. كانت نظرة (فيروز) ذات شجون، فخبرتها الطويلة في زيارة المشافي مع والدتها الراحلة قدعلمتها بالتجربة كم هي قاسية لحظات الخسارة!

و أثناء هذا أتى (يوسف).. وبدأ بيننا حوار سينتهي بأن يتحول قاتل زوجتي -بين عشية وضحاها- إلى صديقي المقرب فيما تبقى من عمرينا.

- (يوسف) أنا أعلم أن ما سأخبرك به الآن ربما سيترتب عليه مخالفتك لقواعد عملك كضابط شرطة، ولكني أؤكد لك أنها ستكون مخالفة روتينية فقط، وسينتهي الأمر بمعرفتك لقاتل (ماهيتاب كاظم) الحقيقي لا محالة.
- ما الأمر أنا لا أفهمك يا (أحمد)؟! هلا شرحت فحوى كلماتك أكثر؟

هنا وفي هذه الثانية أدركت أنه لا مفر من الاعتراف، وأخيرا أخرجت من بين أضلعي خيبتي الكبرى، وخيبة عائلتي واضعا إياها بين يديه، لقد منحته حينها (دفتر سُلاف)!

- ما هذا الذي أعطيتني إياه يا رجل؟!
- إنه دفتر مذكرات ابنة أخي رحمها الله، في هذا الدفتر الذي بين يديك يوجد تاريخ عائلتي الأكثر سوءا وسوادا من أي تخيل يمكن أن ينسجه خيالك البرئ عنّا، وفيه أيضا حل لغز مقتل (ماهيتاب) رحمها الله. يمكنني حل الأمر دون هذا الدفتر يا (يوسف)..والآن هلا سمحت لي بإتلافه مع تعهدي الكامل بحل لغز مقتل الفتاة؟!

ظل (يوسف) ينظر مطولا في عينيّ قبل أن يقول...

- كان بإمكانك إتلافه منذ البداية يا (أحمد)، ولكنك اخترت إخباري. لأخيك دين كبير في رقبتي، فضله عليّ عظيم.. والآن حان الوقت لأرد له بعضا منه، فلتفعل ما تراه مناسبا يا أخي أنا أثق بحكمتك.

نظرات الامتنان كلها لا تكفي لتعبر عن شكري وعرفاني لـ (يوسف) ساعتها، إلا أنني متيقن من أن النظرات كانت كافية لتوضح له حقيقة شعوري.

- د / أحمد تعالى بسرعة..لقد أفاقت والدتك.

سحبني صوت (فيروز) مما كنت فيه وأسرعت خطاي نحو غرفة أمي، ولم أنسَ أن أخفي الدفتر داخل حقيبتي أولا.. وعلى بابها وجدت الطبيب أمامي يشير لي بأن أبقى مع والدتي ما شئت من الوقت، فهمت رسالته الواضحة.. التي أنهاها بالربت على كتفي.

أبي يجلس أمامها على كرسي صغير و(كرمة) تجلس بجانبها على طرف السرير، تمسك بيديها في براءة الأطفال، وكأنما ستمنعها هكذا من مغادرة الدنيا.

تجاهد أمي في توزيع البسمات حولها خاصة تجاه الصغيرة الخائفة من تكرار الفقد الذي أدركت معناه مبكرا. أقترب في خطواتي حتى تراني، وما إن تفعل حتى تنقلب البسمة في عينيها إلى حزن وخزي يدرك كلانا سببه ومعناه. قلبي ينبئني بمدى قرب ساعة الرحيل، أحتضن (كرمة) وأقبلها ثم أقربها من أمي بطريقة تجعلها قادرة على منح حفيدتها قبلة الوداع.

يدرك أبي بغريزته ما أفعله فيزداد بكاؤه ونحيبه وهو يودع رفيقة دربه وحبيبته لأكثر من خمسين عاما، أعطيه الفتاة بعد ذلك وأطلب منهما المغادرة كي يمنحاني بعض الوقت معها. يخرج أبي مصطحبا (كرمة) التي صارت تلوح لجدتها مبتسمة.. وهي غير مدركة أنها لن تراها ثانية.

تبادلها أمي الابتسام.. فهي لا تقدر على غيره وقد أفقدتها السكتة الدماغية قدرتها على الحركة والحديث، لم يتبق لها سوى القدرة على الشعور والابتسام فقط.

أقترب منها.. أجلس على حافة سريرها، أمسك بيديها ودموع كلينا تنهمر كما الأمطار، أقبل يدها ثم أربت عليها بكفيَّ الاثنين وأنا أتصنع البسمة في محاولة لإخراج الكلمات الثقيلة.

- لا تخافي يا أمي، لم يعلم أحد سواي و(سُلاف) رحمها الله بمحتوى الدفتر، ولن يعلم أحد لقد انتهيت من قراءته ولم يعد له قيمة الآن. سأحرقه ولن يدري عنه مخلوق، (جمال) هو الابن الشرعي لـ (يوسف الذهبي) هذه هي الحقيقية التي لن تتغير. لن أذكركِ بسوء أبدا، ولم أكن أنوي أن أفعل، لأنني أحبك يا أمي مهما فعلتِ أحبك ..وأتذكر الكثير من اللحظات السعيدة والحانية بيننا. ما عدا ذلك لا يهم.. ولن يهم صدقيني، أنا ولدك الصغير يا سيدة (نادية) وسأظل كذلك. صغيرك الذي يحترمك ويقدرك ويتكلم عنكِ بفخر أمام العالم كله. حتى (سُلاف) ظلت تحبك حتى نهاية عمرها..أنا متأكد من أنكِ لم تكملي القراءة، لقد ذكرت أنها سامحتك في نهاية الدفتر، وكذلك أنا يا أمي. أنا أسامحك على أي شيء وكل شيء .. وأرجو من الله أن تسامحيني على أية

إساءة ألحقتها بكِ على مدار عمري. لم أكن أقصد يا عزيزتي... لقد أحببتكِ كثيرا، امسكى يدي بقوة إن كنتِ واعية لما أقول.

شعرت حينها بمحاولاتها البائسة في الضغط على يدي... وأدركت أن الله استجاب دعائي وسمح لي بالوداع الأخير معها. أنهيت كلماتي واحتضنتها بقوة مثلما فعلت معي منذ حوالي الشهر.. ولكن هذه المرة كنت أنا المقبل عليها لا هي.

لم يمر كثير من الوقت حتى تعالى صوت صافرة طويلة لا تتوقف من إحدى الأجهزة المعلقة خلفها....

***

(دفترسُلاف)

الحقيقة الثامنة

وهبتني أمي للوجود

بعد أن ضاقت عليّ أحشاؤها

فصار اندفاعي نحو الحياة إجباريا

ومن وقتها وحتى الآن

أحيا بالإجبار!

الزمان: يناير ٢٠٢١
المكان: بيتي أنا و(رامي)... مدينة القاهرة.

ولدت في المنيا.. هذا ما أخبرني به والداي، ونُزِعت منها بعد أشهر من ميلادي، لأن أبي قرر فجأة أنه سيصير أمير الانتقام!

هذا ما أخبرني به جدي (عادل) في إحدى مرات لقيانا قبيل وفاته، قال أنه غير متيقن مما حدث.. ولكن أبي وجدي لأمي السيد (فاضل) اتفقا على خطة من أجل إفلاس العائلة.

أخبرني جدي أنه اضطر لرفع السلاح على ولده غير الشرعي بعد وفاة أبيه ليعلم حقيقة ما حدث، صحيح أنه كان فارغا وأن جدي فعل ذلك كي يعترف أبي أمامه بكل شيء. إلا أنه فوجيء بجدتي تسحب إحدى التحف الفنية داخل المنزل ثم أسقطتها بكل قوتها فوق يد شريكها القديم حتى هشمتها تماما.

أخبرني ضاحكا أن يده اليمنى ترتعش حتى الآن من إثر الضربة، لقد أتلفت السيدة (نادية) إحدى أعصاب يده، فلم يعد قادرا على استخدامها كما يجب، إلا أنه يعذرها فالجميع ظن أنه سيقتل ابن أخيه فعليا. ولا أحد يعلم أنه مجرد والد مفجوع، يُرغم صغيره على الاعتراف بما اقترفت يداه

من إثم. إلا إن أشد ما أدمى قلبه حينها، هو نظرة التشفي التي رآها في عينيّ أبي تجاهه وتجاه موت جده الحاج (حسين).

- لقد أنجبت عقابي في هذه الدنيا..عقابي الذي أمات أبي وكسر ظهري، ولا مسئول غيري عما حدث. أتدرين ما هي مساوئ الأبوة يا عزيزتي؟! أنك تحبين أبناءك مهما فعلوا.. حتى وإن تحولوا لسفراء إبليس في هذه الدنيا.

هكذا أخبرني جدي بطريقة غير مباشرة أن أبي رجل سيئ، لكنه يحبه رغم كل شيء. وقتها لم يكن يدري أنه سيئ حقا، سيء لدرجة أنه سيتسبب في مقتله ومقتل ولده الآخر وابنته أيضا ..كل هذا لأنه صادَق سفَّاحا يدعى (سالم) طيلة العمر. لقد انتقم (سالم) لمقتل أخته، فقرر أن يصير بين عشية وضحاها جلادا يذبح كل من يقابله..

أولا: بدأ بخادمتيّ (كوثر القاضي) ذبحهما ثم ذبح سيدتهما القاتلة.

ثانيا: لم يكتف بعقاب القتلة الأصليين وحدهم، بل تطرق للانتقام من جدي (عادل) ظنا منه أنه من أمر بذبحها، ليقرر ذبح حفيدته (جميلة)، وليته اكتفى. بل قتل أباها أيضا أمام ناظريّ أبي وهو يرى أنه قد حقق العدالة من وجهة نظره، باختصار قرر هذا السفاح قتل عمي وابنتي فداءً للعدالة المزعومة.

كل هذا فعله بعائلتنا صديق والدي.. لماذا يا ترى؟!

لأن أبي مكنَّه منا .. صار يزرع في أرجاء عقله أن (عادل الذهبي) رجل ظالم يستحق العقاب، والآن أيفجعه أن يرى صديقه قد حقق العدالة المنتظرة منذ سنين؟!

أيعلم أبي أن أباه مات بسببه؟

أقسم أنني أردت إخباره بهذا لولا وعدي القديم لجدي بعدم إفشاء سره مهما حدث.

بعد الوفاة المؤلمة للثلاثة لم يعد في وسعي المقاومة أكثر، انهار ما تبقى لي من جدار قوة، صرت لا أدري ليلي من نهاري، أنام بفضل الحبوب المهدئة وأستيقظ عليها، وصوت دقات جدي (عادل) الأخيرة على بابي لا تغادر عقلي. ففي أحلامى كنت أراه أمامي يقف في مواجهة باب البيت.. وفي كل مرة أحاول فيها فتح الباب ينكسر المقبض في يديَّ، ويبقى هو وحده بالخارج يقرع الباب وأنا غير قادرة على فتحه أمامه. ولولا مخافة الله ومحبتي لابنتي.. لكنت ذبحت نفسي كما ذُبحت (جميلة) كي أُري أبي المعنى الحقيقي للعدالة!

في هذه الأثناء عاد عمي (أحمد) ورأيته يفعل ما أردته وتمنيت فعله، الانفجار في وجه أبي. لم أقدر على فعلتها، حسنا ..فليفعلها غيري.

اتهم عمي أبي بتسببه في خراب عائلتنا وفناء ثلاثة أفراد منها، هجر البيت وقاطع أبي.

فعل كل ما أردت فعله أنا ولم أقدر عليه...الانتقام من (جمال الذهبي).

لم يفت وقت طويل حتى انهار أبي هو الآخر ودخل المشفى، أخبرني الأطباء وقتها أن كبد أبي متضرر من جراء ما تعرض له من سم مؤخرا. وهناك علمت ما أخفاه عنا أبي وظل صامتا يتلقى لوم أخيه مطأطيء الرأس، لقد سممه صديقه على مدار فترة تحقيقاته في مقتل (كوثر القاضي) وخادمتيها. كان يدّعي محبته ومساندته بينما وضع له ما يتلف كبده للأبد.

أكد لي الأطباء أن نسبه السم غير مميتة ولكنها تُفسد أعضاء الجسد ببطء، مما يجعل المريض يحيا مع آلامه لما تبقى من عمره، فلا هو يموت ولا هو يبرأ.. بل يبقى بين بين. والأسوأ أن أبي كان مصابا بداء السكري أيضا ولم يخبر أحدا بذلك، الآن أدركت ما يحدث إنه يعاقب نفسه عبر تركها في مرمى المرض واللوم.

أبي الآن نائم في سريره مثل أبيه، الآن يمكنني رؤيته على وجه الحقيقة، الآن يمكنني ملاحظة مدى الشبه بينه وبين أبيه الحقيقي، الملامح، التصرفات، حتى طريقة الغضب. وكنت أرجو لحظتها ألا يشبهه في نهايته أيضا. تركته في المشفى وأسرعت نحو بيت عمي الجديد، لا أذكر كم جريت! ولا كيف كان البرد قارسا لدرجة جمدت الدماء في عروقي، ولكني أذكر المطر الذي لم يتوقف عن الانهمار فوق رأسي وكأنه يذكرني بأنهار بكائي التي لا تجف أبدا.

وأخيرا وصلت لبيت عمي (أحمد) لأوصيه بألا يغلق الباب في وجه أخيه مثلما فعلت أنا مع جدي (عادل). كان عمي مذعورا بشدة من مظهري المضطرب، وآخر ما أذكره قبل إغمائي هو إخباري إياه بعنوان المشفى.

أفقت فيما بعد لأجد نفسي في ذات الغرفة جانب أبي، كل منا على سرير متصل بخراطيم من المحاليل تخترق ذراعيّ كلينا. ما فهمته من (رامي) أنني تركت له ابنتنا (كرمة) وذهبت دون أن أعلمه برحيلي، وبعدها بساعة تقريبا عدت مع عمي (أحمد).. ولكنني عدت فاقدة للوعي. لم أكن مريضة ولكن اجتمع عليّ كل شيء فجأة، وكان انهياري نتيجة حتمية لا مفر منها.

الآن هدأ الوضع المشتعل وصار بإمكاني أن أرى أبي مبتسما من جديد، عودة عمي إليه كان بمثابة عودة الروح للجسد بعدما فارقته، لقد استطعت أن أرى تبدل حال أبي من النقيض للنقيض بمجرد رؤية أخيه الصغير الحبيب. ولا أعلم لما تذكرت جدي (عادل) حينها؟! واهتاجت نفسي ساعة تذكري له وهو مسجى على سريره. يا لقلبه المسكين الذي توقف من الأسى!

أتذكر الآن جيدا لحظة وصولي للمنيا وحضور جنازة (جميلة) كان يقف أمامي هناك في زاوية ما، تلاقت نظراتنا ورأى كلانا دموع الآخر، ولكننا لم نتحرك من أماكننا أبدا.

الآن أرى الأمور من زاوية أخرى، وكأنني شخص آخر يشعر بالألم من أجل الآخرين لا من أجل نفسه. يتعافى أبي وأتعافى معه.. ونخرج حينها سويا من باب المشفى وقد اتفق كلانا على قرار حاسم وقطعي. سأتخلص من كافة أدوية الاكتئاب وسأتحمل تبعات انسحابه من أجل ما تبقى من عائلتي. يمر عليّ ما يعادل الشهر أمر فيه بكافة مراحل التعافي، ومع بداية نسمات الربيع أشعر بالقدرة على مواجهة الحياة مرة أخرى.

وفي هذه الأثناء تأتي إلى بابي سيدة وقور تدعى (منال حاتم) تُخبرني بأنها صاحبة دار نشر ناشئة وتطمح للتعاون معي.

كنت أكتب منذ عمر السادسة عشرة تقريبا لذلك استطعت أن أحقق صيتا وشهرة ونسبة عالية من المبيعات جعلت أعرق دور النشر تطمح للتعاون معي، وبرغم هذا فقد آثرت أن أعمل مع هذه السيدة.. ربما لأنني اجتذبتني الطيبة التي لمحتها في عينيها!

كانت جميلة، هادئة، متزنة، طموحة، والأكثر إبهارا من كل هذا أنها كانت تفهمني جيدا كما لو كنا أصدقاء قدامى.. ولكن متى تقابلنا يا عزيزتي؟!

تطورت علاقتنا سريعا، وصارت تشغل في حياتي حيزا اتسع حتى شمل عمي (أحمد) الذي فاجأني ذات ليلة بأنه يحب صديقتي (منال) وسيتزوجها!

صديقتي التي لم يعرفها سوى من لقاءاته العابرة معها في حفلات توقيع للكتب.

لم أعلم كيف أجيبه..؟! هذا أمر يخصه، ولكن ردة فعل جدتي كان صعبا وقتها، فهي لم تقبل أن يتزوج ابنها من امرأة دخلت إلى حياتنا فجأة! امرأة تفوقه في العمر والتجربة، امرأة لا ترى أي ميزة فيها سوى أنها سحرت عقل ابنها الأصغر من أول نظرة. ولكن عمي لم يستشر أحدا.. لقد أخبرهم بالأمر ورحل لبيته مرة أخرى. كان قد عاد للبيت بعد مرض أبي الأخير ومع توسلاتي له بالبقاء لم يقدر على الرحيل ساعتها، ولكن بعدما تعافى أبي جمع متعلقاته ورحل ثانية.

أخبرني أبي أنه وقف يراقبه من وراء باب غرفته. ونظر كلاهما لبعضهما البعض نظرة مطولة.. شعر والدي خلالها بأن قلبه يُكسر تدريجيا. ولا يكتمل اليوم السعيد دون كارثة أخيرة..أتت (ماهيتاب) إليّ باكية في منتصف الليل لتخبرني بمقتل زوجة جدها الثانية!

انقلبت بها العربة وهي عائدة من زيارة لأبويها وكان معها طفلها الصغير، إلا أن العناية الإلهية أنقذته.. والطفل في بيت (ماهيتاب) حاليا.

- تخيلي أن يكون لكِ عم في عمر ولدك تقريبا يا (سُلاف)... (أدهم) طفل لطيف ومهذب للغاية.. رحم الله أمه وأنزل صبره وسكينته على قلب جدي. ولكن المصيبة أن لا أحد

يعلم فعليا بزواج جدي الثاني غيري، كيف سنعلم العائلة كلها الآن! لقد حاولت جدتي قتله لأنها وحدها من أفراد عائلتي التي كانت تعلم سرا بأمر زواجه وحمل زوجته الثانية، ماذا ستفعل إذا ما رأت الطفل على وجه الحقيقة ؟! (سُلاف) لماذا لا تجيبني ؟

- (ماهيتاب) ألا تشكين في شئ ما ؟ أنا لا أعتقد أن وفاة زوجة جدك تمت قضاءً وقدرا ؟

هنا صمتت صديقتي ونظرت لي في رعب..

- أيمكن أن تفعلها؟!
- والله أنا لا أستغرب هذا، فمن تقدم على قتل زوجها بعد كل هذه العشرة لن تتورع عن قتل زوجته وابنه.
- ولكنني هددتها!
- نعم، ولذلك غيرت طريقتها هذه المرة.. تركت جدك وقتلت زوجته وكانت تهدف لقتل ابنه أيضا. هي لا تنتقم لأنها تُحب جدك.. بل تفعل ما تفعله من أجل الثروة. تريد التخلص من الزوجة والابن من أجل الميراث، وأتوقع أنها كانت تهدف للتخلص منهما سابقا بعد قتل جدك بالأدوية الخاطئة. (ماهيتاب) نحن أمام سفاحة بمعنى الكلمة، فلتخفي الفتى

عن ناظريها الآن وادفعي جدك لإشهار زيجته أمام الجميع، وبعدها لن تقدر على إيذاء الصغير في العلن.

هكذا جاء حوارنا.. وبعد أيام جاء (رشيد كاظم) تقرير الطب الشرعي، هناك من أفسد الفرامل والمحركات داخل العربة الخاصة بزوجته. ووقع في يقيني صحة توقعي.. الحادثة تمت بفعل فاعل. وتأكدت كلتانا من أن (عائشة داود) الفاعلة..ولكن كيف نخبر زوجها بهذا؟

- لو علم سيقتلها.. سأصبح قاتلة جدتي يا (سُلاف). لا أقدر على البوح.. ولا أحتمل على الصمت...يا الله أين المفر وأين السبيل؟!

ولكن الأيام مرت وتقبلت عائلة (كاظم) مرغمة وجود (أدهم) بينهم، لم يستطع أحد أن يواجه رأس العائلة. فصحيح أنه تنازل لهم عن الإدارة الفعلية للثروة.. ولكنه صاحبها ولا يقدر أحد على مواجهته. وبمرور الأيام تسلل الصمت إلى قلب (ماهتاب) كما تسلل إلى قلبي، وصارت صديقتي شريكة لي في آثام الصمت.

***

الزمان: يونيو ٢٠٢٣.
المكان: مقابر عائلة الذهبي.. مدينة المنيا.

كنت أظن أن ما قرأته عن أمي محا محبتها من قلبي.. أقنعني عقلي المسكين أنني كرهت أمي، والآن أدرك وأنا أحملها بين يدي واضعا إياها وسط التراب أنني أضع ما تبقى من قلبي معها.

اليوم ماتت أمي الحقيقية..وأنا الغافل الذي ظن محبته لـ (غادة) أغنته عن محبة أمه! بينما كانت هي بديلا لأمي، بديلا أحببته بصدق ولكنها لم تطغ على مكانة أمي في نفسي أبدا.

فقط الآن أفهم حقيقة شعوري تجاهها.. أنا لم أكرهها قط لو كرهتها فعلا ما كنت لأحزن هكذا سواء قبيل وفاتها أو بعد الوفاة الفعلية. كل ما حدث هو أنني غضبت منها.. وحين يختلط غضب المحب مع عاطفته يهيأ له للحظات أنه بغض حبيبه بينما هو ناقم عليه فقط، وعلى قدر المحبة تنمو براكين الغضب.

.. ومع آخر كومة تراب وضعتها فوق جثمان أمي، استطعت أن أرى وأشعر بالكثير والكثيرمن الأشياء الجميلة التي منحتني إياها طيلة

عمري. الآن أتذكر مئات الدعوات.. لحظات الدعم اللانهائية.. الابتهاج لكل نجاح أحققه، والمواساة غير المشروطة مع كل إخفاق، الآن أرى أمي على وجه الحقيقة.

أما خطاياها القديمة فلم أعد أراها.. وكذلك خطايا عائلتي كلها، حتى ما يخص زوجتي (منال) منها!

وقبل أن أرحل مع أبي و(كرمة) أخبرتهم بغفراني لهم ..

ودعوت الله أن يغفر لهم جميعا.

..وفي طريق عودتنا إلى القاهرة أخبرت (يوسف) بكل شيء قرأته عن (ماهيتاب) في دفتر (سُلاف) .. ولم يتبق لنا سوى تحقيق العدالة المنتظرة.

***

الزمان: يونيو ٢٠٢٣
المكان: قصر (رشيد كاظم).. مدينة القاهرة.

ذهبت أنا و(يوسف) هذه المرة لمواجهة (رشيد كاظم) بما علمناه، في البداية بدأ الرجل بتعازيه لي على فقد والدتي..وأكد لي أنه كان سيحضر اليوم لتعزيتنا فور عودتنا من المنيا ولكنه لم يتوقع حضوري من الجنازة إليه مباشرة! وهنا بدأت حديثي :

- لم يعد هناك وقت نضيعه يا سيد (رشيد) ما جئنا من أجله لا يؤجل..لقد علمنا هوية قاتل حفيدتك.

رشيد:

- ولكن هوية قاتل حفيدتي معلومة سلفا يا سيدي..(عائشة) هي من فعلتها، أم أنك غيرت رأيك وقررت الدفاع عنها بدلا من حفيدتي؟!
- أنا لم أغير رأيي يا سيدي في أي شيء، ولكن يجب عليّ أن أعلمك بما توصلت إليه فعليا. باختصار السيدة (ماهيتاب) هي من قتلت نفسها عامدة متعمدة من أجل إلصاق التهمة بجدتها حتى تحميك منها ومن محاولات قتلك المتكررة التي تسعى إليها ! وأنت تعلم هذا لأن حفيدتك أخبرتك بما أقوله أثناء احتضارها، وأنت أيضا من قام باختطاف حارس القصر

خاصتكم حتى لا يتواصل معي ويخبرني عما لاحظه على السيدة (ماهيتاب) قبل وفاتها. لقد توصل الضابط (يوسف) للرجل ووجده سالما وانتهى الأمر، نحن نُقدر ألمك يا سيد (رشيد) ونعلم أنك لست رجلا مؤذيا، ولم تكن تنوي بالحارس شرا، ولكنك احتجزته في مكان آمن لحين انتهاء التحقيقات، وهو لن يوجه لك أي تهمة أنا أتعهد لك بهذا.. والآن فلتخبرني بكل شيء دار بينك وبين حفيدتك في لحظاتها الأخيرة على وجه الحقيقة.

سقط الرجل فوق أريكته محاولا التماسك متكئا على عصاه، ثم نظر إلي وشرع يحكي لنا..

- لقد تسببت بمقتل صغيرتي.. لم يحبها أحد مثلي، حتى أبويها تركاها لي وجريا بحثا عن المال والتجارة، لقد تركت لهم كل شيء واكتفيت بها وحدها. هي ابنتي أنا.. التي أرغموني على أن أهديها للتراب باكرا.. لقد قتلَتْ حفيدتي نفسها من أجل حمايتي من (عائشة) التي اتفقت على تسميمي أنا وولدي الصغير (أدهم).

صمت الرجل ثم أكمل قائلا..

- ولكنها لم تخبرني، لقد اكتفت بقتل نفسها في صمت، والآن تحاولان تبرئة من دفعتها للموت. لا لن أسمح لكما أبدا..

(دفترسُلاف)

الحقيقة التاسعة

وقتما حسدني الآخرون

لصمودي،

كان الخراب

ينمو داخلي،

ويزدهر!

الزمان: فبراير ٢٠٢٣
المكان: بيتي أنا و(رامي).. مدينة القاهرة.

مر عامان لم أفتح خلالهما الدفتر، حينما أحضرته من مخبئه أسفل الخزانة كانت تعلوه الأتربة. تعمدت إهمال العناية به أو حتى تنظيفه، تركته هناك أسفل الخزانة كي يلتصق بها وينال نصيبه من الغبار والعتمة. لعل التراب يطهره أو يمحوه.. أو ربما كي يتآكل مع مرور الزمن . ولكن يتضح لي الآن أنه مازال سليما ولم ينله أي خراب، أنا التي خربت.

خلال هذين العامين أنجزت أكثر مما كتبته على مدار عشر سنوات مضين، بدأت الكتابة في عمر السادسة عشرة، نلت ما لم ينله أقراني، رزقني الله بأسرة داعمة، منحني زوجا عاقلًا، أهداني فتاة كبدر السماء، رزقني أصدقاء طيبين، ولكن على الجانب الآخر اختبرني بأسوأ الاختبارات.. كشف لي حقيقة من حولي كاملة.

واليوم كان موعد أثقل الاختبارات على نفسي!!

لقد اعترف لي أبي أنه يراني غير ذات قيمة! فأنا لا أستطيع فعل أي شيء منفردة، أنا مجرد فتاة غبية من وجهة نظره كما قال اليوم.

لم أدرِ بم أجيبه..؟!

ربما هو على حق لقد أرهقته كثيرا، ولكنه لا يدري كم تعذبت! حتى هو لم يكن ليقدر على تحمل ما تحملته أنا، ولكني لم أعد قادرة على فعلها أكثر من ذلك.

الاستمرار في المواجهة صار رفاهية لا قدرة لي عليها، واليوم سأنهي كل شيء، فهذا أفضل من أجل (كرمة) و(رامي). وأما عن (أبي) فلن تفيده فتاة أكل الحزن قلبها مثلي، الآن أدرك أنني لن أتعافى أبدا.. سيزورني الانهيار مجددا ولا أريد لفتاتي أن ترى هذا. سأحرق الدفتر، لن أترك ورائي دليلا، بعد أن ينام (رامي) سأنهي كل شيء، وفي الصباح سيجد حبيبته جثة هامدة مسجاة أمامه تحمل بين أصابعها الباردة زجاجات الدواء الفارغة. لا وصية، لا خطاب وداع، ولا حتى تفسير!

أعلم أنه سيتألم ولكنه سيتحرر مني بعد فترة من الزمن، اليوم ودعت (كرمة)، جديَّ، عمي (أحمد)، صديقتاي (ماهيتاب) و(منال)، أمي، أما عن أبي فقد حاولت معه ولكنه لم يترك لي الفرصة. حسنا لا يهم الآن.. المهم أنني رأيته لآخر مرة.

الآن سأحضر كِرداني المكسور كي أضعه فوق عنقي للمرة أخيرة.. ليكون شاهدا على موتي كما شهد ذات يوم على حقيقتي وحقيقة آبائي! وبعدها سأعيد الدفتر مكانه، لقد أفرغت فيه حقيقتي الكاملة وانتهى

الأمر. وفي فجر الليلة سأشاهد النيران وهي تلتهم الخطايا داخله، وسأذهب من فوري لتناول كل أدوية الاكتئاب التي احتلت رفوف غرفتي لفترات طويلة.

لقد رفضت تناولها في جرعات محددة على مدار عامين، وبعد سويعات قليلة سأفرغها في حلقي مرة واحدة أخيرة وإلى الأبد. ولن أنسى أن أمنح غفراني لكل الأحياء والأموات.. جدتي (نادية)، جدي (عادل)، وأخيرا أبي (جمال الذهبي)، لعل الله يغفر لي.

وداعا أيتها الدنيا.. كان حلما سعيدا رغم كل الآلام.

توقيع الهاربة من جحيم الدنيا إلى رحمة الله...
سُلاف جمال عادل حسين الذهبي

***

الزمان: يونيو ٢٠٢٣
المكان: قصر (رشيد كاظم).. مدينة القاهرة.

انهار(رشيد كاظم) بعدما واجهته أنا و(يوسف) بحقيقة ما حدث، تذكر تفاصيل يوم مقتل حفيدته كله من البداية وحتى نهايته. شجارها صباح اليوم مع زوجته (عائشة)، تهديدها لها بالقتل إذا لم ترتجع عما في رأسها، مغادرة (ماهيتاب) للمنزل ثم عودتها ثانية إليه، وفي النهاية لحظات موتها القاسية.

- كان يجب أن أفهم أنها ستفعلها، أخبرتني قبلها بدقائق أنها لا تُحب أحدا مثلي، ولن تسمح بإيذائي مهما حدث.. لم أكن أدرك ما ترمي إليه.

ابتسمت لها.. كنت فخورا بها بشدة، كانت فتاة ناجحة، ابنة طيبة، وزوجة وأما مثالية. لم يتخيل أحد أنها تموت فعليا.. حينما بدأت في التألم اتصلنا فورا بالإسعاف ونقلناها إلى غرفتها.

وهناك علمت كل شيء، أخبرتني أنني الشخص الوحيد الذي أحبها فعليا في هذه الدنيا.. فقد وجدتُها أغلى من المال والنفوذ اللذان لم يجد أبواها وجدتها في الحياة أهم منهما!

كما أكدت لي ظنوني بأن (عائشة) هي من كانت وراء تدهور صحتي وموت زوجتي، هناك هاجس ما جعلني أشك فيها ولكن لا بينة لدي، فكيف أواجهها بما لا دليل على فعلها له؟!

لم أملك سوى قلبي .. وإن القلب لا يحتاج إلى الدلائل كي يعلم. حتى زوجها الذي ظنت أنه يحبها اكتشفت مؤخرا أن زيجتهما تمت بناء على توصيات والديه، كانوا يبحثون عن طريقة ما لجمع ثروتي آل (السويفي) وآل (كاظم) معا، ولا شيء أفضل من زيجة تُرتب كما لو أنها جاءت عن طريق المحبة لا المصلحة.

توقف قليلا ثم أخبرني أنها فعلت هذا كي لا ينالني ما نال عائلة (سُلاف) من بعدها، لقد خشيَت على حياتي وحياة ابني، فقررت أن تموت هي فداءً للجميع. كما أخبرني بتحذيرها إياه من حارس القصر لأنه رآها وهي تُحضّر جرعة السم في سيارتها، وحين شاهده يعطيني ورقة ويحدثني في الخفاء أدرك أنني في طريقي لمعرفة ما حدث .

- هي المسئولة، يجب أن تُعدم، حاولت قتلي، كما قتلت زوجتي فعليا، والآن حفيدتنا.

كيف تسعون لنجاتها الآن.. ؟!

- ومن قال لك أننا نفعل، أتظن أن الموت هو عقابها الأقسى عن آثام الماضي؟ إن نجاتها من الإعدام هو العقاب بعينه!

ولمن ستحيا؟ هل لابن سيعلم أن أمه تسببت في انتحار ابنته؟ أم لثروة محتملة ضاعت للأبد؟ هي لا تستحق حتى التطهر بالموت يا سيد (رشيد).

ويبدو أن إجابتي قد أقنعته، رغم نظراته المكسورة ودموعه المنهمرة كما لو أن حفيدته ماتت من جديد. أحيانا تكون القسوة الكامنة وراء الفقد أسوأ من نيران الفقد ذاته، ولولا كلمات (مالك السويفي) زوج (ماهيتاب) لي ما كنت لأدرك مفتاح حل اللغز أبدا.

وفي ثانية واحدة التحم حديثه مع حديث (سُلاف) وأدركت الحقيقة كاملة، لقد أخبرني (مالك السويفي) أن زوجته خرجت بعد خلافها مع جدتها وعادت بعد ساعتين.. وقبل بداية الحفل كانت تصرفاتها غريبة للغاية.

أولا ودعت طفلها الصغير (رشيد) كثيرا و كذلك فعلت مع عمها (أدهم)، ولكنه لم يهتم فقد قال لنفسه أنها تداعب طفلين في نهاية الأمر.

ولكن شكوكه ازدادت حينما أقبلت عليه وأخبرته قبل بدء عيد الميلاد أنها تحبه رغم أنها تعلم أن زواجهما تم من أجل المصالح المالية بين الأسرتين. وقتها أدرك بقلبه أن هناك حادثا خطيرا سيقع..

- كان الأمر أشبه بالوداع .. وتحول لوداع حقيقي بعد موتها، وأنا الغبي الذي لم يصحح لها حديثها واكتفى بالصمت.

صحيح أن زيجتنا تمت من قبيل المصلحة في بداياتها، ولكنني وقعت في غرامها فيما بعد! لم صمت؟! لماذا لم أشرح لها؟ ربما ما كانت لتفعلها! بعد حديث زوجها معي وقع في يقيني أن (ماهيتاب) هي من سعت لمقتلها ولكن كيف السبيل إلى الإثبات؟! لم يكن أمامي مفر سوى لقاء (عائشة داود) نفسها، واجهتها بحقيقة ما قرأت في دفتر (سُلاف). أخبرتها أنني أعلم أنها وراء مقتل ضرتها وأنني أدرك جيدا دوافعها وأملك ما يمكنني أن أعيد بها فتح ملف القضية ثانية، كما يمكنني الصمت والتغافل عن الأمر إذا ما حدثتني بحقيقة ما دار بينها وبين حفيدتها صباح مقتلها. وهنا انهارت وروت لي كل شيء، أخبرتني أنها عاودت فعلتها وحاولت التخلص من زوجها ولكن هذه المرة فعلتها مع ولده أيضا. وقد اكتشفت حفيدتها الأمر لأنها كانت تراقبها دون أن تشعر، وحينما واجهتها هددتها بأنها ستخبر جدها ولن تتركه هو وولده عرضة للقتل. مما اضطرها إلى أن تهددها بقتلها هي الأخرى إن فتحت فمها بكلمة واحدة. أخبرتني (عائشة) أنها كانت تسكتها فقط، لا يمكن أنها تفعلها حقا.. وهل يوجد من عاقل واحد في هذا العالم يهدد أحدهم بالقتل على مرمى ومسمع من الجميع؟!

- أنتِ لم تتركى لها عقلا أيتها اللعينة، لقد تسببتِ في أن تقتل حفيدتكِ نفسها . فلتحترقي أنتِ والثروة التي تسعين خلفها في أعماق الجحيم.. وبالمناسبة لا يوجد دليل واحد على فعلتكِ النكراء، حادثة العربة التي تسببتِ فيها بمقتل أم بريئة، وعرضتِ ولدها هو الآخر لخطر الموت. ولكني أعلم يقينا أنكِ من فعلتها! اطمئني يا سيدة (عائشة) ستخرجين من هنا ولكن كلينا يعلم أنكِ فاعل أصلي في كل هذه الجرائم بداية من تسميم زوجك وحتى مقتل ضرتك وحفيدتك. يبدو أنكِ من النوع الذي يدخر الله عقابه للآخرة ليكون أشد وأقسى بكثير من أي عقاب دنيوي.

كان هذا آخر لقاء جمعني بها، فيما بعد تواصلت مع (يوسف) وأخبرته بتتبع خط سير (ماهيتاب) في يوم الحادثة وقد كشفت الكاميرات عن ذهابها لإحدى المحلات البعيدة عن مسكنها والمختصة ببيع أدوات التنظيف، وهناك ابتاعت سم فئران سريع المفعول بحجة وجود عدد من الفئران في منزلها.

فيما بعد عادت للبيت وذهبت في هدوء لتطلب من جدتها إعداد عصير البرتقال الذي كانت تحضره لها وهي صغيرة، نفذت الجدة طلبها ظنا منها أن الفتاة هدأت بعد مشادة الصباح بينهما، وذهبت من فورها لتعطيها عصيرها المفضل أمام الجميع، وهنا تحقق لـ (ماهيتاب) ما أرادت والبقية

معروفة.. وضعت السم خلسة في العصير وابتلعته كله. وانتهى الأمر بموتها المحقق بعد عدة دقائق في غرفتها وأمام جدها، وبشهادة الشهود وإثبات كل ما حدث بُرئت ساحة (عائشة داود) من جريمة مقتل حفيدتها (ماهيتاب كاظم) الإعلامية والرسامة الشهيرة.

ولم أنس تسريب اسم الضابط (يوسف) للصحافة في صورة المحقق المتميز الذي سعى خلف الحقيقة ولم يتوان عن حل قضية مقتل شخصية شهيرة تبدو للوهلة الأولى سهلة وعادية، بينما هي أصعب مما يمكن تخيله. وكان هذا عرفانا مني بجميله عليَّ، وصيانته لسري وسرعائلتي..

ولأنني لم أكن من النوع المهووس بالشهرة لأنها ما كانت تعنيني مطلقا، فقد اكتشفت كل هذا بفضل دفتر قديم كتبته ابنة أخي في أيام آلامها الطوال. وبعدما أُطلق سراح (عائشة داود) بأيام علمت أن زوجها لم يسع إلى ردها لعصمته وقد وثق طلاقهما الشفهي. كان هذا عقابها الأمثل بعد ما تسببت فيه من خراب للعائلة، امرأة سبعينية كانت تدير كبرى الشركات الاستثمارية والقنوات الإعلامية في البلاد تحولت بين ليلة وضحاها لامرأة معدمة لا تملك شيئا.

فكل الممتلكات تقع تحت طائلة (رشيد كاظم) وحده، حتى الحسابات البنكية كانت باسمه منفردا، عدا عدة حسابات أنشأها باسم حفيدته الراحلة قبل مصرعها. والقنوات الإعلامية التي كانت ترأسها ويخشى العاملون بها مجرد الحديث معها، صارت إحدى وسائل الانتقام منها بعد

أن علم الجميع بحقيقة ما حدث. ولولا عطف ولدها عليها وتوفيره لمسكن ومبلغ مالي خاص بها شهريا، كانت لتصير مشردة فعلية.

الآن انتهى كل شيء.. لم يعد للدفتر أية أهمية، وقد حان وقت التخلص منه نهائيا. وبعد انتهاء القضية كلية ومرور أسبوع على وفاة أمي.. انتظرت حتى أتى الليل وسكبت عليه قليلا من الكحول، وبعدها جلست على أرضية حديقة منزلنا لأشاهد وريقاته تتآكل بفعل اللهب والحرارة. ولم أبرح موقعي حتى بات رمادا منثورا...

وفي اليوم التالي ذهبت لمنزلي أنا و(منال)، لملمت متعلقاتها الباقية واتصلت بإحدى الجمعيات الخيرية لتأخذ محتويات المنزل كاملة كتبرع لوجه الله تعالى.. ووضعت في نيتي أن يكون تبرعي صدقة جارية على روح زوجتي الراحلة.

كما عهدت إلى إحدى الشركات الهندسية بإعادة تغيير معالم البيت.. باختصار محوت كل ذكرياتي مع (منال). وإن كنت قد غفرت لها، فهذا لا يعني أنني أريد إبقاء ما يمكن أن يذكرني بها. أما بيت (سُلاف) و(رامي) فلم أكن مؤهلا لاتخاذ قرارا بشأنه، فهذه ملكية (كرمة) وواجبي أن أحفظها لها حتى تبلغ رشدها وساعتها يمكنها إدارة أملاكها بنفسها.

***

الزمان: يوليو ٢٠٢٣.
المكان: مقابر عائلة الذهبي.. مدينة المنيا.

ما الأصعب يا ترى، مواجهة الموتى..أم مواجهة الأحياء؟

من وجهة نظري الاختيار الأول أصعب بكثير، ومن هنا كان عليّ أن أذهب إليهم من أجل مواجهتهم مرة أخيرة.

حادثتهم جميعا كما لو كانوا أحياء، بكيت وضحكت معهم،عارضتهم في بعض ما فعلوا وأيدتهم في البعض الآخر، تذكرت أفراحنا وأتراحنا معا. أخبرت (سُلاف) أنني أحبها أكثر مما تتخيل..واعتذرت لها عن كل كلمة قاسية وصفت بها أباها، طالبا منها أن تغفر لي لأنني لم أكن أعلم معاناتها. أخبرتها أنني قرأت كل ما دونته وعلمت بقرار انتحارها الذي كان أكيدا لولا مقتلها في ذات الليلة على أيدي (منال)، كما أخبرتها بالجزء الأخير من الحقيقة التي جهلتها طيلة الوقت وهو أن (منال) عمتها، كما لم أنس أن أخبر(جمال) أنه ابن (عادل الذهبي) وبالتالي فهو أخ لزوجتي الراحلة، زوجتي التي قُتل بيديها.

كانت واحدة من أقسى الحوارات التي أجريتها وسأجريها خلال عمري كله..حوار أقسى من أن أذكره أو حتى أدونه.

فقد كان حوارا مع الموتى، وفي النهاية منحتهم الغفران وسألتهم إياه أيضا..فقد انقضت أسباب البغضاء بيننا الآن. بقلبي كنت أعلم أنهم على دراية بالحقائق كلها، ومن قبل زيارتي لقبورهم.. فقد رحلوا جميعا لدارالحق، بينما بقيت أنا مع أبي و(كرمة) في دار الباطل. وفي نهاية حديثي طمأنت (سُلاف) و(رامي) على ابنتهما وأخبرتهما كم هي طفلة مميزة، ولم أنس أن أؤكد لهما أنها صارت أكثر سعادة وطمأنينة مؤخرا. وقبل أن أرحل بحثت بين مقابر المدينة عن قبر لفتاة وحيدة، صغيرة، ماتت مغدورة في عمر الزهور، فتاة تدعى (بسمة)، بحثت طويلا حتى اهتديت إليه.. وجدته بعيدا في نهاية الطريق، آثار الإهمال والنسيان بادية عليه.

كان واجبًا عليَّ زيارتها من أجل أخي، فقد كانت بسمته وأمله اللتان أُنتزعا منه باكرا. ولم أنس أن أعرفها بنفسي متمنيا من كل قلبي لو أنها قد اجتمعت أخيرا بأخي الآن، وفي نهاية زيارتي سألتها الغفران لأمي لفعلتها البشعة.

هل يمكن أن يغفر الأموات لبعضهم البعض..؟!

لا أعلم!! ولكنني سألتها إياه على كل حال، والآن صار عليّ العودة من حيث أتيت، لأن هناك من ينتظرني في هذه الدنيا.

***

الزمان: أغسطس ٢٠٢٣
المكان: محل مصوغات ياسين الهواري.. مدينة القاهرة.

إلىٰ أي حدٍّ يجاوزُ الإسراف بأحدنا مداهُ في مَنح الغفران؟!

..بل ماذا يتبقى لنا بعد هذا المَنح اللامشروط؟

هل تندمل حقًّا جروح أنفسنا وتبرأ؟ أم يُدق - في أغوار الروح- وشمُ ندبةٍ لامرئي؟

وشمٌ خفيٌّ عن أعين الناظرين، لكنه يظل -أبدًا- شاهد عيانٍ على ما انقضىٰ... ولن يستعاد من أعمارنا؟!

هذا ما كنت أفكر فيه وأنا أخطو بقدميّ داخل محل مصوغات (ياسين الهواري) عم صديقي الراحل الذي كُسرت أضلعه على يدي قبل أشهر.

وما إن رآني حتى انتفض من مكانه وصار يرحب بي ويعزيني في فقد والدتي في آن واحد، كما أخبرني أنه أراد تعزيتنا ولكن خشي من تفسيري لسبب زيارته بشيء من الشك والريبة.

ابتسمت في وجهه وأوضحت له أن لا ريبة بين الأهل، كما لم أنس أن أعتذر له على ما فعلته به واعتذر هو أيضا على كلماته القاسية لنا.. وأخبرني أن الألم أعماه فلطالما أحب (سُلاف) ورآها خير الزوجة والابنة .. كما أنه لم يقصد إهانة أخي المرحوم الذي يُجلَّه ويدعو له بالمغفرة.

هززت رأسي في تفهم وأوضحت له أنا ما مضى لن يعود، ولكننا على الأقل يمكننا معا أن نمنح حاضرا طيبا لطفلتنا الصغيرة.. واتفقت معه على أن يأتي لزيارتنا في أقرب فرصة، فحفيدته بحاجة إليه. بكى وشد على يدي معتذرا بصدق عن فظاظة حديثه السابق....

وبعد يومين من زيارتي له، وجدته قد أتى لرؤية (كرمة) وساعتها لمحت على وجه الصغيرة أمارات الفرح والسعادة وهي ترى أمامها بعضا من ذوي والدها الراحل.. وبينما تلهو وتلعب مع جدها (عم والدها) استطعت أن أجلس على أحد مقاعد الحديقة أراقبها من بعيد مبتسما في هدوء وطمأنينة، الآن فقط وبعد كل هذا أستطيع أن أجلس وأرقب الحياة من حولي دون أن أشارك فيها.

تتعالى ضحكات (كرمة) و (فيروز)، بينما أبي يجلس بجانبي راضيا مبتسما مما يرى، وما بين الفينة والأخرى يتجه بناظريه ناحيتي وكأنه يشكرني على مصالحتي السيد (ياسين).

الآن فقط يمكنني الابتسام، الآن فقط أدرك أن ما مضى لن يعود، فالحاضر ملكي والمستقبل بيد مليك مقتدر، ولا يبقى أمامنا سوى أن نحيا آملين في رحمته التي وسعت كل شيء.

تمت بحمد الله..

الفهرس

(دفتر سُلاف)

الحقيقة الأولى.....٦٣

الحقيقة الثانية.....٧١

الحقيقة الثالثة.....٩٣

الحقيقة الرابعة.....١٠٩

الحقيقة الخامسة.....١١٩

الحقيقة السادسة.....١٤٥

الحقيقة السابعة.....١٦٣

الحقيقة الثامنة.....١٧٧

الحقيقة التاسعة.....١٩١